الشعرُ العربيُّ
في رحابِ رمضان

صفحاتٌ مُسْتَلَّةٌ من كتابي
" شِعْرُ المناسباتِ الدينيَّةِ "

محمد علي كاتبي

خَيرٌ أُتِيحَ فَخُذْ لِنَفْسِكَ قِسْطَهَا

فالصفوُ ليس على المَدَى بِمُتاحِ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على سيدنا محمد رسول ربِّ العالمين ، وعلى آله و صحبه أجمعين .

و بعد :

فحين كنت تلميذاً في الصف (الأول الإعدادي ، المتوسط) كلَّفنا أحد الأساتذة بعمل لوحةٍ (صحيفةٍ حائطية) ، و كان ذلك قُبيل دخول شهر رمضان بيوم أو يومين ، و شاء الله أن ألتقط ورقة تقويم، و كانوا يكتبون خلف ورقة كل يوم بعض الأحاديث الشريفة، و الحِكم و الأمثال ، و طرائف الأشعار ، و كان مما كُتِب خلف تلك الورقة أبياتٌ شعرية على وزن أبيات شوقي وقافيتها في وصف الربيع: (أذار أقبل قم بنا يا صاحِ ...) الأبيات ، و كانت تلك الأبيات التي التقطُّها معارضة لأبيات شوقي ، و هي :

رمضانُ أقبلَ قُمْ بنا يا صاحِ هذا أوانُ تبتُّلٍ و صَلاحِ

الكونُ مِعْطارٌ بطيبِ قدومِه رَوْحٌ و ريحانٌ و نفْحُ أَقاحِ

صفوٌ أُتِيحَ فخُذْ لنفسكَ قِسْطَها فالخيرُ ليس على المدى بمتاحِ

فاغنمْ ثوابَ صيامه و قيامه تَسعدْ بخيرٍ دائمٍ و فلاحِ

و نسخت هذه الأبيات في دفتري ، و ذهبت بها في اليوم التالي إلى الأستاذ ، فسُرَّ بها كثيراً ، و أثنى على جهودي مع علمه أن الأبيات منقولةٌ .

و بعد أيام كانت تلك الأبياتُ تحتلُّ وسط الصحيفة ، و قد لُوِّنت حواشيها ، و أخذت زخرفها وأزيِّنت ، و أُخرجتْ إخراجاً جميلاً زاهياً ، مشفوعةً برسمٍ (للمسحراتي) مع طبلته .... إلخ . و كان اسمي قد أُثبِتَ تحت الأبيات ، مع أني لست صاحبها ، و قد لاقتْ استحساناً من المدرسين و الطلبة على السواء ، و بقي أثر ذلك في نفسي أمداً طويلاً .....

ثم توالتْ الأيام فوقفتُ على قَدْرٍ عظيمٍ من الشعر الرمضاني ، الذي يتناول الصيام من جوانبه كافةً، فَرُحْتُ أجمع ما أمكن فكان بعضه مادة لهذه الصفحات.

و بعد : فإن الصـيام ركن عظيم من أركان الإسـلام ' فَرَضَـهُ الله سـبحانه و أوجب أداءه ' لما فيه من طاعة لله ،ولِما ينطوي عليه من حكم جليلة، و منافع عظيمة ' في الدنيا والآخرة .

و رمضـــان شـــهر جميل ' محبَّبٌ إلى النفوس ' فلا يخلو مسـلم من ادِّكار ذكريات رائعة منذ طفولته ' عن هذا الشهر الكريم المبارك ...

و رمضانُ شهر الفضل و العمل الصالح ' والأجر الجزيل ' وهو شهر القرآن .

و في رمضـــان يجتمع الأصـــدقاء، و الأهل و الأقارب و الأرحام على موائده المباركة، و في سهرات لياليه الرائعة ' في الشتاء خاصَّةً ' يتبادلون أحاديثَ السمر البريئة العذبة المحببة ' و أكلاته الشـــهية و حلواه المفضـــلة ؛ كالقطايف و الكنافة و المبسوسة شتاءً ' و الفواكه و المرطبات صيفاً.

و قد وقعتْ في رمضان أحداثٌ عظيمةٌ جِسام، منها السارة و منها غيرُ ذلك .

و حصل فيه كثيرٌ من انتصارات المسلمين ' منذُ عهد النبي صلى الله عليه وسلم ' إلى ما تلاه من العصـــور و القرون ' كيوم بدر وفتح مكة ' وغيرهما و قد وثَّقها الشـعراء و دوَّنوها ' و قالوا فيها شـعراً كثيراً رائعاً . ولكننا لم نَعرض لها هاهنا ؛ لأننا أفردناها في بحثٍ خاصٍّ مستقل على حِدةٍ .

و قد استوفى الفقهاء الكلام على أحكام رمضـان كافَّةً ' و اشـتغل العلماء بدراسـته ' و الوعاظ بالترغيب في صيامه' و القيام بالطاعات في أيامه و لياليه ' و بيان فضائله ...

و لم يتوانَ الأدباء و الشعراء عن القول في هذا الشهر الكريم ' بل أفاضوا فيه و في جوانبه كافةً أيضـــاً.. ' فتركوا مادة أدبية و شـــعرية عظيمةً جمَّة ' حتى إن الباحث ليغرق في لُجَجِها ' و يحار أيّها يأخذ و أيّها يدع ...

و قد تحدثتُ عن هذا الشـهر العظيم ؛ تعريفِه لغةً و اصـطلاحاً و سـبب تسـميته .. ' وما قيل فيه ' و تحدثتُ عن استعداد الناس لاستقباله منذ شعبان ' و كيف يستقبلونه بالترحيب ' و يتراءون هلاله بشـوقٍ عجيب ' و كيف يهنئ بعضـهم بعضـاً بقدومه ' حتى غدتْ التهنئة برمضـــان غرضـــاً شـــعريَّاً ثراً ' ثم تحدثتُ عن فضـــائله الجمَّة ' وتحدثت عن السحور و (المسحراتي) ' و منشأ هذه الظاهرة ' و عن مدفع رمضان في الإمساك و الإفطار ...

و تحدثتُ عن شـــعر القيامِ و التهجُّد و التراويح و الاعتكاف، و عرضـــتُ للعشـــر الأخيرة فيه ' و هي أجمل لياليه و أفضـــلها ' و عن ليلة القدر و ضـــرورة اغتنامها في الطاعات .. ' و عن الإكثار من العبادات و الاجتهاد فيها ' وفي العَشْـــر الأخير من رمضان.

ثم تحدثتُ عن ظاهرة وداع رمضـــان ' و ما يترك في النفوس المؤمنة من حزن و أسى، لفراق هذا الشهر الفضيل . و تحدثتُ عن بعض العادات السيئة لدى بعض الناس في رمضان ' كاللهو و إضاعة الوقت 'و الإسراف في الموائد و المآكل و الأشربة ' و الإفراط في تناول الطعام ' و الغيبة والنميمة ... إلخ

ثم تناولتُ الحديثَ عن بعض الأطعمة و الأشربة الرمضانية .. ' وحَلواهُ ' وعرضتُ لبعض المواقف السيئة لبعض الشعراء من صيام رمضان ... ثم كانت الخاتمة ____

و كثيراً ما تتداخل أغراض الشـــعر الرمضـــاني ' فيختلط بعضـــها ببعض . فنرى الترحيب بشهر رمضان قد امتزج بالتهنئة بحلوله ' و تشابك الكلام على فضائله مع الحديث عن أجر الصـــائمين و منزلتهم ' و اختلط الشـــعر في ليلة القدر بصـــلاة التراويح بأهمية عَشْرِه الأخير، مع وداع رمضان ... و هكذا

أوردتُ هذا كلَّه من خلال بحر لُجّيٍّ من الأبيات الشـــعرية ' يشـــقُّ على الباحث اســتقصــاؤها ' و الإحاطةُ بها ' فانتقيتُ منها ما رأيتُ أوفى للموضــوع و أصــلح ' و أثبتُّ بعض الأشـــعار اكتفاءً بهـا عن الكثير ' في كلِّ. غرض من الأغراض (وحَسْبُ القلادة ما أحاط بالعنق) .وكانت الكثرة الكاثرة من هذه الأشعار الرمضانية

في استقبال رمضان والترحيب به، وضربتُ صفحاً عن ذكْرِ المناسبات و الأحداث الرمضانية ' و ما قيل فيها ' لأننا سوف نفردها بالحديث على حدةٍ .

وضربتُ صفحاً أيضاً عن الخوض في الجانب الفني لهذا الشعر الغزير ' إذ هو في معظمه عفوي ' لم يلتفتِ الشـعراء في أغلبه إلى الصـنعة و التكلف. و إجهاد النفس فيه ' فكانت عباراته ســهلة ' ومعانيه واضــحةً مكررةً متشــابهةً 'قريبة المأخذِ ' لا عِوجَ فيها و لا التواء 'و كلُّها قريبٌ بعضـها من بعض، وأسلوبه سلسٌ ميسور ' ليس فيه عويصٌ و لا غريب . وأخيلَتُه قليلة غيرُ بيِّنةِ المعالم ' إذ لم يلتفِتِ الشـــعراءُ إلى إعمال الخيال و التصـــنُّع ' فاختفتْ فيه إلا قليلاً الصـورُ الفنِيَّةُ ' فلم يُعِرها الشـعراء كبير اهتمام .

و قد غلب صدق العاطفة على أكثره ' إذ إنَّه خرج من القلب صافياً نقيَّاً ' لا يُراد منه الملق و التزلُّف ..

ويجدرُ أنْ أُشـيرَ إلى أن جُلَّ الشـعر الرمضـاني قد نُظم في الأزمنة المتأخرة، إذ لم يلتفتْ شعراء القرون الأولى، والعصور المتقدمة إلى التطرق إلى هذا الموضوع.

كما أشير إلى أن كثيراً من هذا الشعر الرمضاني لا يُعرف قائله.

أسأل الله أن يعيد هذا الشهر المبارك على المسلمين أعواماً عديدة ، و أزمنة مديدة ، و هم بخيرٍ و رفعةٍ و عزٍّ و تمكين ، و أن يعيننا على صـــيامه وقيامه على الوجه الذي يرضيه عنا ، و أن يتقبَّله منا بالعفو و الغفران بفضله وكرمه .

وصـلَّى الله على سـيدنا محمد وعلى آله وصـحبه وسـلم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

محمد علي كاتبي

الصيام لغةً وشرعاً:

يقال : صام الرجل صَوماً و صَياماً ‘ واصْطام: أمسكَ عن الطعام والشراب والكلام والنساء، والسير، وهو صائم، و قوم صُوَّمٌ بالتشديد ‘وصُوَّام وصِيَّام وصُيَّم أيضا وصُيامَى (١).

و صامَ الفرسُ صَوماً، وخَيْلٌ صائمةٌ لم تَعْتلِفْ، وأقامتْ على غير اعتلاف(٢) قال النابغة (٣) :

خيلٌ صيامٌ و خيلٌ غيرُ صائمةٍ تحتَ العجاجِ وخيلٌ تعلُك اللُّجما

و صام عن الكلام : كفَّ عنه ‘ قال تعالى : " إني نذرتُ للرحمن صوما ‘ فلن أُكلِّم اليومَ إنسيًّا " سورة مريم: ٢٦.

و الصوم : في الشرع : تركُ المباحات و الإمساك عن المفطرات ‘ من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، مع النيَّة. وهو فرض واجب على كل مسلم مُكَّلف. (٤)

و معنى رمضان ؛ الرَّمَضُ في اللغة : شدَّةُ الحرِ ‘ و الرَّمَضُ أيضا حرُّ الحجارة من شدة الشمس، و قالوا : الرَّمَضُ هو : الرجوع من البادية إلى الحاضرة لاشتداد الحر.(٥)

و أرضٌ رَمِضَة الحجارة : حاميةٌ شديدٌ حرُّها . و أَرْمَضَ الحرُّ : اشتدَّ ورَمِضَ الرجل يَرمَضُ رَمَضاً : إذا احترقت قدماه من شدَّة الحرّ .(٦)

و في حديث صلاة الأوابين التي سنَّها رسول الله صلى الله عليه وسلم في الضحى ‘ عند ارتفاع النهار . و وقتها: إذا وجد الفصيل حرَّ الشمس من الرَمْضاء ‘ و حينها تَبرُك الفِصال من شدة الحر و إحراق أخفافها ...‘ " فعن زيد بن أرقم رضي الله تعالى عنه، قال: خرج رسول الله صلى الله عليه سلم، على أهل قباء، وهم يُصلُّون الضحى، فقال: "صلاة الأوابين، إذا رَمِضَت الفِصال" .(٧) و قيل في رمضان سوى ذلك أيضا ..

و ما يعنينا هنا : شدة الحر ‘ و هو الذي عليه مدار الحديث .

و كان مشركو قريش يعذبون بلالاً و المستضعفين من المؤمنين في الرمضاء ‘ أي في حرّ الشمس ‘ وقتَ ارتفاع الضحى و عند الظهيرة .(٨)

لماذا سُمِّي شهر الصوم : رمضان ‘ مع أنه يوافق شهور الحر و غيرها ؟ . قالوا : رمضان : اسمُ شهر من شهور السنة العربية الهجرية ‘ و ذكر ابن الأثير في (النهاية في غريب الحديث والأثر) ‘ قال : لأنهم لمَّا نقلوا أسماء الشهور عن لغة العرب القدامى سمَّوها بالأزمنة التي وقعتْ فيها ‘ فوافق هذا الشهر أيام شدة الحرّ و رمضِه ‘ فسُمِّيَ بذلك. و الله أعلم.(٩).

إذن سُمِّي رمضانُ لِرُمُوض الحرّ‘ و شدة وقع الشمس فيه .(١٢)

و ذكروا : أنه سُمِّي رمضـان ؛ لأنه يُرمِضُ الذنوبَ ‘ أي : يحرقها بالأعمال الصالحة .(١٣)

و قالوا : سُمِّيَ رمضان ‘ لأنه حين يُرمِض الصيامُ و يُحرُّ الجوفَ ‘ ويشتد حرُّ جوفه . ففيه من الصحَّة الكثير ...

و سُمِّيَ شهر جُمادَى لأنه وقع في الشتاء ‘ وفي البرد الشديد ‘ حين تتجمد المياه

من شـدة البرد و الظلام، حيث لا يبصـر الكلب طُّنُب الخيمة ، ولا ينبح إلا مرة من شدة البرد ،كما قال الشاعر مُرة بن محكان السعدي.(١٠)

في ليلةٍ من جُمادَى ذاتِ أَنْديةٍ لا يُبْصِرُ الكلبُ من ظَلمائها الطُّنُبا

لا ينبحُ الكلبُ فيها غيرَ واحدةٍ حتى يَلُفَّ على خَيْشومِه الذنبا(١١)

وتأتي لفظة رمضان مضافةً إلى الشهر ‘ كقوله تعالى : " شهرُ رمضانَ الذي أُنزلَ فيه القرآنُ .. " البقرة ١٨٥ . وقد كَرِهَ العلماء جمع رمضان دون الشهر ... ‘

قال أبو جعفر الرؤاسي : (روي عن المشيخة :أنهم يكرهون أن يُجمع رمضان دون الشهر، ويقولون: شهر رمضان ، شهرا رمضان ، شهور رمضان " (١٤) . كما تأتي بغير إضافة (١٥)، كقول العجَّاج (١٦):

لقد أتى في رمضانَ الماضي جاريةٌ في دِرعها الفضفاضِ

أبـيـضُ مـن أُختِ بني إباضِ تُـقَـطِـعُ الحـديثَ بالإيماضِ

أي ينشغل القوم بحسن منظرها عن الحديث، إذا ابتسمت فإذا كان الناس على حديث قطعوا حديثهم ونظروا إلى حسـن ثَغرها(١٧) . والإيماض: مايبدو من بياض أسـنانها عند الضحك والابتسام. وشبهه بوميض البرق ولمعانه.(١٨)

و الشهورُ كلها مذكرة إلا الجُمادتين (٢٠).

و يُجمع رمضان لأكثر العدد جَمع كَثرةٍ، فيقال : رمضانين ‘ ويُجمع لأقل العدد جمعَ قِلة فيقال: أرمضةٌ وإن قُلتَ: أرماض وأرمضةٌ جاز، وقالوا: أرْمِضاء. و يُجمع جمع مؤنث، فيقال: رمضانات(٢١).

و قد ورد اسم رمضـان في القرآن الكريم ‘ قال تعالى : "شـهرُ رمضـانَ الذي أُنْزِلَ فيه القرآنُ" . ولم يُذْكَرْ في القرآن اسم شهر سواه ، قال الشاعر مخاطباً رمضان :

أنتَ المُفضَّلُ في السماء وفي الكتاب خُصِصْتَ وحدَك

كما ذُكِرَ رمضان في الحديث الشريف ‘ و في الشعر العربي .

و لشـهر رمضـان فضـائل عظيمة ‘ و للجنة باب خاص للصـائمين يُسَـمَّى : بابَ الريَّان .... و شـهر رمضـان من الأزمنة المتميزة المباركة ‘ و له في الشـعر العربي حظٌّ وافٍ وسهمٌ وافر .

و قد فُرض الصـوم على المسـلمين في السـنة الثانية من الهجرة الشـريفة ‘ و صـام رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة رمضانات ‘ قال الشاعر مروان المزيني(١٩) :

صام النـبيُّ هنا بطيبةَ تسعـةً من أشهر الغفران في رمضانِ
يا ربِ بلِّغنا شفاعته التي بنـوالـها ننجو من النيرانِ
صلُّوا عليه وسلِّموا فصلاتُكم مفـتاحُ إكرامٍ من الرحمنِ

الاستعداد لاستقبال شهر رمضان :

و يبدأ بعض الناس الاستعداد لاستقبال شـهر الصـوم , و يكون هذا الاستعداد و التهيُّؤ له بمراجعة النفس و محاسبتها ‘ و الابتهال إلى الله بالتوفيق إلى توبةٍ نصـــوحٍ ... ‘ فيكون شـــهر شـــعبان تمهيداً لإصـــلاح النفس و ذات البين ‘ و العودة إلى الله .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يستعدُّ لاستقبال شهر رمضـان ، بالإكثار من الصـيام ، في شـهر شـعبان ...، فعن أمِّ المؤمنين عائشـةَ رضـي الله عنها، كما في الصـحيحين، قالت : "لم يكن رسول الله صـلى الله عليه وسلم، يصـوم في شهرٍ، أكثرَ من صيامه لله في شعبان، كان يصوم شعبان إلا قليلاً، بل كان يصومه كله".(٢٢)

وقد كان عمر بن قيس يقول :" طوبى لمن أصلح نفسه قبل رمضان"(٢٣)

وفي الاستعداد لشهر الصوم يقول الشاعر:

شـعبـانُ أطـلـق للـفـؤاد جَنانـا متـشـوقاً حتى يـرى رمضانا
ربَّـاه أَكْـرِمْـنـا بـتـوبـة نـادمٍ كَيما ننالَ الفضلَ و الإحسانا
ونصافحَ النفحاتِ في شهر العطا ونـرى السـرورَ يحفُّنا ألوانا
وارْفـعْ مقاماً في المعـاني دائمـاً حتى نُلاقي الفوز والرضوانا

ويكفي المسلمَ ما رتعَ فيما قبل رمضان، ولها وعبَّ من المباحات، وقد نعمتَ أيها الإنسان بما أهدى رجبٌ من التحفِ لشعبان ‘فاستمتعتَ بلذيذ المآكل والمشارب ‘تقويةً لشهر رمضان ‘فإذا حلَّ الصوم ووطَّنتَ نفسك لاستقباله ‘فأوقِفْ نفسك على العبادةِ والطاعة ‘والصيام والقيام . يقول ابن دراج القسطلي الأندلسي (٢٤):

فَلئن غَنِمتَ هناك أمثالَ الدُّمى فهنا بيوتُ المِسك فاغنمْ وانتهبْ

تُحَفاً لشعبان جلا لك وجهُهُ عوضاً عن الورد الذي أهدى رحبْ

فاقبلْ هديته فقد وافى بها قدراً إلى أَمَد الصيام إذا وجبْ

واستوفِ بهجتَها وطيبَ نسيمها فإذا دنا رمضان فاسجدْ واقتربْ

ومنذ شاع البيتان التاليان ‘اللذانِ نُسِبا إلى أبي نواس (٢٥):

إذا العشرونَ من شعبانَ ولَّتْ فواصِلْ شُرْبَ ليلكَ بالنهارِ

ولا تشربْ بأقداحٍ صغارٍ فقد ضاقَ الزمانُ على الصِّغارِ

هَبَّ العلماء و النُّقاد مستهجنين قوله ‘ يُفنِّدون رأيه ‘ فيما سنقِف على بعض ذلك ‘ في موضعه ‘ كما سيأتي في وداع رمضان ...

فهذا الشيخ العلاَّمة أحمد بن علي البِسْكِري(٢٦). يناقض البيتين بمعارضتهما، ويهيب بالمسلمين بالتَّهيُّؤ لاستقبال شهر رمضان الخير ‘بالإكثار من صنوف العبادات و الطاعات ‘بهمة و نشاط ‘و تركِ التهاون والتكاسل ‘ فهذا موسم الغنيمة والاغتنام :

إذا العشرونَ من شعبانَ ولَّتْ تهيَّأْ للصيام وللقيام

ولا تكسلْ عن الطاعات فيه فهذا الوقتُ وقتُ الاغتنام

وشهرُ الصوم قد وافاكَ حقاً بكلِّ المَكرمات على الدَّوام

على أنَّ بعض العلماء وجَّهوا بيتي النواسي ‘ توجيهاً آخر ‘ يَحَضُّون المسلمين فيهما على الإقبال على الله ‘ لأنَّ ربيع العمر قد ولَّى وشارف الإنسانُ على نهايته ‘وأشرفَ على لقاء الله. وقد كان هذان البيتان سبباً في توبة كثيرٍ من الشعراء وسواهم .

وثمَّةَ شاعر آخر يردُّ على أبي نُواس بيْتَيْهِ ‘منتقداً ومعارضاً، وموجِّهاً البيتين وجهة أخرى ‘ تَحُضُّ على الاستفادة مما بقي من شهر شعبان بصنوف الطاعات ‘ استعداداً لاستقبال شهر رمضان ‘ وضرورة استفراغ الجُهد فيما

بقي من الوقت ‘بالإكثار من الذِّكْر الدائم، والأوراد والاستغفار، وتلاوة القرآن يقول :.

إذا العشرونَ من شعبانَ ولَّتْ فواصلْ ذِكْر ليلك بالنهارِ

و لا تذكرْ بأورادٍ قِصارٍ فإنَّ الوقت ضاق على القِصارِ

و يَنْعَى شاعرٌ على ذلك المسكين الذي يُبدِّد عمره في المعاصي و الآثام، ناصحاً إيَّاه أن يغتنم شهر شعبان بالتهيُّؤ للعودة إلى الله بالتوبة ، والاستغفار‘ و الذِكْر و تلاوة القرآن ‘ فسوف يُظِلُّنا عما قريب شهر الخير ‘ و الغفران و الاجتهاد في الطاعة ‘ فلا تجعلْ صومك و فِطرك سواء ‘ و لا تبدِّد رمضان في اللَّهو كباقي الشهور :

فيا ذا الذي ما كفاه الذنْبُ في رجبٍ حتى عصى ربَّه في شهرِ شعبانِ

لقد أظلَّكَ شهرُ الصومِ بَعدهما فلا تصيِّرْه أيضاً شهرَ عِصيانِ

واتلُ القُران و سبِّحْ فيه مجتهداً فإنَّه شهر تسبيحٍ و قرآنِ

كم كنتَ تَعرفُ مَنْ قد صام في سَلَفٍ من بين أهلٍ وجيران وخلان

أَفْناهُمُ الموتُ واستبقاكَ بَعدهُمُ حياً فما أقربَ القاصي من الداني

ويبدأ استعداد الأتقياء لاستقبال رمضان المبارك، منذ استهلال شهر رجب، ثم شعبان، يقول مؤيد الدين الشيرازي(٢٧) :

أتى رجبٌ يؤملُ منك شمسَ ال سعادةِ بدرُها بدرُ العلومِ

ويأتي بعده شعبانُ شهر ال نبيِّ الطاهرِ البَرّ الكريمِ

وشهرُ اللهِ يتلوهُ و كّلٌ يدلُّ على أخي شرفٍ جَسيمِ

ورحمةُ ربِّنا فينا تَجَلَّتْ وذاكَ الفضلُ من ربٍّ رحيمِ

ويهيب الشاعر ياسر الدوسري(٢٨). بالمسلم أن يغتم رجب وشعبان بالاستعداد لشهر الصوم ناصحاً إياه باغتنام الأوقات، واستدراك قابل أيامه بالتوبة :

مضى رجبٌ وما أحسنتَ فيه وهذا شهرُ شعبانَ المباركْ

فيا مَنْ ضَيّعَ الأوقاتَ جهلاً بِحُرْمَتِها أَفِقْ واحذرْ بَوارَكْ

تَداركْ ما استطعتَ من الخطايا بتوبةِ مُخلِصٍ واجْعَلْ مَدارِكْ

على طَلَبِ السلامةِ منْ جحيمٍ فخيرُ ذوي العظائمِ مَنْ تدارك

وبدل أن يغتنم البحتريُّ دخول شعبان ' فيستعدّ لاستقبال شهر الصيام ' فإننا نراه يَعُبُّ من اللَّذات، قبل هلال رمضان ' لأنه _ يَحسب _ الصيامَ سيمنعه من ملاذِه ' كما يزعم :

فَتَروَّ من شعبانَ إنَّ وراءَه شهراً سيمنعكَ الرحيقَ السلسلا

بل إنه يدعو لمبادرة المعاصي واقتناصها، فقد انتصف شعبان ، واقترب دخول رمضان :

قُمْ نبادرْ بها الصيامَ فقد أَقْمَر ذاك الهلالُ من شعبان

فيجب أن يُستغلَّ شهرُ شعبان في الإعداد لشهر الصومِ ' وتهيئة النفس للصيام و ترويضها عليه ' وليس بالعبِّ من الملذات ' فضلاً عن الشبهات والمحرمات ' وقد كان من هدي النبيّ صلى الله عليه وسلم الإكثارُ من الطاعة ، والصيام في شعبان استعداداً لاستقبال شهر الصوم . فشعبانُ كالمغتَسَل الطيّب ' يُطَهّر المسلمُ فيه نفسه ' ليستقبلَ رمضانَ وهو نظيفٌ طيب .

وإنَّ من فرَّط في شعبانَ و لم يغتنِمْه ' كان كرجلٍ أشعثَ أغبرَ متَّسِخِ الثوبِ ' مرَّ على مَطْهَرةٍ بمائِها الثرِّ النظيفِ ' و لكنه لم يغتسلْ ' و بقيَ على دَرَنه و شَعْثِه و غبارِه . يقول عبد الله بن سليم الرشيد(٢٩) في وجوب اغتنام شعبان ' والاستعداد فيه لرمضان الخير :

تُوغِلُ الأيامُ في إيجافها من صدى الأمسِ وعُمقِ الأزلِ
وأسيرُ الذنبِ مكبولُ الرؤى هَمَّ بالرُّجْعى ولَمَّا يفعلِ
مرَّ شعبانُ فلم تحفلْ به روحُهُ الملقاةُ بين الهمَلِ
عجباً مِن أغبرَ ذي شعثٍ مرَّ بالنهرِ فلم يغتسلِ

وتزدهي قلوب المؤمنين بإقبال شهر الصيام، و يستبشرون بهلاله ' إذْ

تتضاعف أجورهم في رمضان ' وتتفتَّح فيه أبواب الفضل والرحمات و الإحسان ' فهو شهر الخير و العتق من النيران ' وهو شهرٌ تنزَّلَ فيه القرآن، يقول عبد الإله المالك (٣٠):

رمضانُ أَقبَلَ فانتشتْ بجِنانه كلُّ النفوسِ وازْدَهتْ ببيانهِ
وتضاعفتْ للصائمين أجورُهم وتباشرتْ بهلالهِ و أوانهِ
وتفتَّحتْ أبوابُ رحمةِ خالقٍ بالفضلِ بالعتقِ من نيرانه

وتـنـزَّلَ القـرآنُ مـن ربِّ الـسـمـا فـي ليـلةٍ قـد قُـدِّرتْ في شـانهِ
رمضـانُ أنتَ على الشهور مفضَّلٌ بالخيرِ في طولِ المدى و زمانهِ

و لمَ لا ' و رمضـان شـهر البركة و الإيمان ؟ و فيه يَهَبُ الله عباده المؤمنين الرحمةَ و العفو و المغفرة ' فأنت أيُّها الشهر المبارك بشارة الخير :

يا شهرَ عفوٍ للأنام و رحمة يُسدِي به الرحمن من غفرانهِ
كـنْ للجميع بشارةً و حفـاوةً أملاً بنيل الفوز من إحسانهِ

و في رمضان يشعُّ نور الهدى و الحق، و الخير يهدي المنيبين من العباد :

للراكعين الساجدين مناقبٌ ما تاهَ دربُ النور من عنوانهِ

وبقدوم رمضـــان تاجِ الشـــهور تزهو العوالمُ، وتزدهر الأكوان، ويشـــتدُّ الشـــوق إليه والحنين لأوقاته، فتســـتقبله القلوبُ والأشـــعار مبتهجةً بمقدمه وفضـــائله، فهو حياة القلوبِ وربيعها، يقول الشاعر عبد الرحمن صالح العشماوي(٣١)

هـذا هو الشهرُ الكريـمُ أمـا تـرى كيف ازْدَهَى تَمْرٌ و دَرَّ حليبُ
رمضانُ يا تاجَ الشهورِ قصائدي شـوقٌ إليكَ ولحْنُها ترحيبُ
شـذَّبْتُـهـا حـتى أتَتْكَ مليحةً إنَّ ا لغـصـونَ يَزِينُها التَّهذيبُ
حَمَلَتْكَ يا رمضانُ في وجدانـها حُـباً يَطـيبُ لـها به التَّشبيبُ
ما أنـتَ إلا نـبْـعُ خيرٍ ترتـوي من مائِـه العـذبِ الفراتِ قـلوبُ

ويجأر الشـــاعر عبد الرحمن الأهدل (٣٢). بالدعاء إلى ربه، وقد هلَّ هلال رمضـــان متضـــرِّعاً أن يمحوَ ذنوبه ، التي أثقلتْ ظهره، فيطلب من ربه العفوَ والغفران، وهو يرحِّب بهذا الشـــهر المبارك، الذي تتجلَّى فيه نفحاتُ الربِّ الكريم، إذ يعتق اللهُ عبادَه المؤمنين من النيران، وفي هذا الشـــهر تخشـــعُ قلوبُ المؤمنين الأتقياء، الذين تزهو المساجد بهم، فهو شهر الخير ونزول القرآن، وفيه الليلة المباركة التي يغفر الله فيها الذنوبَ ، فهنيئًا لبني الإسلام بشهرهم، وجدير بنا أن نُحْسن فيه العملَ ، مرحبين به، فسلام الله عليك يا شهرَنا وحيّاكَ الله، يقول عبد الرحمن الأهدل:

إلهي إنَّ شهرَ الصومِ وافَـى وذنْـبي فوقَ ظـهـري كالغِطاءِ
ومرحى يا حبيبَ القلبِ مرحـى سأُهْـديـكـم نـشـيدي بالثناءِ
وكـمْ لله من نـفحـاتِ خـيـرٍ بـمـقـدمِكَ السعيدِ أَخَا السنـاءِ

قيامُكَ لم يجِدْ في الليل نِداً وصومُكَ تاجُه نورِ البهاءِ
وفيكَ العتقُ من نارٍ تَلَظَّى إذا ثابَتْ قلوبُ الأشقياءِ
وغفرانٌ يلاحقُ ذا ذنوبٍ إذا ما تابَ من فِعْلِ الوباءِ
فكمْ خَشَعَتْ قُلوبُ ذوي صلاحٍ وكمْ دَمَعَتْ عيونُ الأتقياءِ
نَظرتُ مساجداً تَزهو بنورٍ فَسُرَّ القلبُ من وَهْجِ الصفاءِ
وفيكَ تَنَزَّلُ الأملاكُ حتى طلوعِ الفجرِ يا لكَ من ضياءِ
هنيئاً يا بني الإسلام طُرَّاً فقد هَلَّ المباركُ بالعطاءِ
فحَيُّوا شهرَكمْ بجميلِ صَوْمٍ فكم فَرِحَتْ قلوبٌ باللقاءِ
وفي عنقي جبالُ الوِزْر تلوي عروقي والذنوبُ رَحَى البلاءِ
فجُدْ بالعفو يا ربَّاه إني دعَوتُك مخلصاً فأقبلْ دعائي
سلامُ اللهِ يا رمضانُ يَغْشَى جنابَكَ يا مُكَلَّلُ بالسخاءِ

ولم ترتوِ قريحة الشاعر عبد الرحمن الشميله مما سبق، ففاضت مرحبةً بهذا الشهر المنير، شهر الخيرات والبر وشهر الأولياء والأتقياء الذين تتلألأ بالخير وجوههم فتنزاح الشرور والأثام ، وقد بَدت البشرى وطفح النور على وجوه الصالحين :

أقبلتَ تزهو ونورُ الوجهِ وضَّاءُ فما ارتأتْ في رُباكم قَطُّ ظَلماءُ
شهرٌ تلألأ بالخيراتِ فانْهَزمتْ أمامَ طَلعتِه الغراءِ ضَرَّاءُ
الصالحون ومنْ يَقْفُو مأثرَهُمْ بدتْ على وجههمْ بُشرى ولَأْلَاءُ

التهنئةُ بقدوم رمضان:

و با قتراب شــهر رمضــان تنهلُّ التهاني و التبريكات بقدومه ' فتكونُ التهنئة للولاة والأمراء والأصدقاء والأهل والخلان ' بل لقد غدت التهنئة بشهر رمضان غرضاً شعرياً حافلاً ' في باب التهاني والمناسبات وغيرها ..

فهذا الشاعر الرضي يهنئ الخليفةَ العباسيَّ الطائعَ لله بحلول شهر الصوم يقول :

تَـهَنَّ قـدومَ صـومِـكَ يا إماماً يصومُ مَدَى الزمانِ عنِ الأثامِ
إذا ما المرءُ صامَ عن الدَّنايا فكـلُّ شهورِهِ شهرُ الصيامِ

و يهنئ ابنُ سـناء المُلْك (٣٣). ممدوحَه بمَقدَمِ هذا الشــهر العظيم ' داعياً الله أن يحقق له كل ما يرجوه ' فهو خير صـــائم . و إنَّ مَن صـــام عن الدَّنايا والمنكرات طَوال عمره ' فتركُ الطعام و الشراب عنده من أهون الأمور ' يقول :

تـهنَّ بهذا الصـومِ يا خيرَ صائـرٍ إلى كلِّ ما يَهوَى ويا خيرَ صائمِ
ومَنْ صام عن كلِّ الفواحش دَهْرَه فأهونُ شـيءٍ هجـرُهُ للمطاعمِ

و بمَقدَمِ شهر رمضان تهِلُّ بشائر الخير على الهائمين بحبه ' و المتشوقِين لقربه ' إذ هو شهر الخير والرحمة والمغفرة ' والأمل برضا الله سبحانه ' يقول الشاعر حسين عرب (٣٤):

بُشرَى العوالمِ أنتَ يا رمضانُ هتفتْ بك الأرجاءُ و الأكوانُ
لكَ في السماءِ كواكبٌ وضَّاءةٌ و لكَ النفوسُ المؤمناتُ مكانُ
وبكَ استهامَ فؤادُ كلِّ موحِّدٍ يَسْمو به الإخلاصُ و الإيمانُ
يا باعثَ الآمالِ تَخفِقُ ثَرَّةً بالخيرِ ليس يَشوبُها بُهتانُ
يا مشعلاً قَبَسَ الحقيقةَ بعد أنْ أَعْيَتْ على استقصائها الأذهانُ

و يأتي رمضـــان فتهِلُّ بمقدمِهِ الرحماتُ و البركاتُ ' وينبعث الأمل في النفس بعفو الله ' و مغفرته ورضوانه ' يقول الشاعر الدكتور عثمان قدري مكانسي-(٣٥) :

رمضانُ هَلَّ بوافرِ الرَحَماتِ يُهدي لنا الآمالَ بالبركات

.....

و بحلول شـهر الخير تهُبُّ نفحات الرحمةِ ' معطَّرةً بأريج البِشْرِ ' الذي طالَ شوقُ القلوبِ إليها ' فهنيئاً لمن فاز بنسمةٍ من شذاها العبق :

أرى النفحاتِ هبَّتْ في حِمانا و ذا رمضانُ بالبشرى أتانا
و كم يشتاقها قلبُ المعنَّى فيا أرَجَ الهدى هَذِي حِمانا
بسطتُ الروحَ بالآفاقِ عَلِّي أفوزُ بنسمةٍ عمَّت رُبانا
و أسكب دمعةَ الملتاع شوقاً لأيَّامٍ زَهَتْ فيها مُنانا

فهذا الشهر المبارك يطُلُّ على الكون ' مضمَّخاً بطيوب البشرى والفرح والابتسام ' فيا فوزَ مَن غنِم أيامه و لياليه المباركات ' و حيَّا الله هذه الأيام ' و أعادها على الأمة الإسلامية بالظَفرِ و الهناء و السرور ' عاماً بعد عام، يقول عبد الواسع اليهاري(٣٦):

شهرٌ أطلَّ على الأقوامِ بسَّاما يا سعدَ مَن صامهُ يا فوزَ من قامَا
أهلاً بشهر الهدى بالخيرِ عُدْتَ لنا أعادكَ الله أعواماً و أعواما
مُسلسلُ الخيرِ أَحْرى أنْ يُتابَعُ من مسلسلاتِ تُضيعُ الشهرَ والعاما

ويناجي الشاعر مروان المزني(٣٧). هذا الشهر الكريم ' ويناديه بلهفة وشوق وحنين ' ممزوجاً بالفرح و السرور، بإقبال شهر الخير ' و قدومه الميمون ' وقد استعدَّ المسلمون لاستقباله بقلوب لَهِفَة 'و أشرعتْ المساجد أبوابها للترحيب بالزائر الكريم، و تهيَّأتْ المآذن لمناجاته ليلاً ونهاراً ' بل بَسَطَتْ كلُّ أبواب الخير أذرُعَها لاستقباله ' حتى جنة الله قد تهيأتْ ففتحتْ باب الريان للصائمين في هذا الشهر الفضيل .... :

رمضانُ أقبِلْ إنَّ في أرواحنا ظمأً إليكَ لتُطفئَ الأشواقا
هذا الهلال مبشِّراً في فرحةٍ أنْ قد أتَيت لتسعدَ الأحداقا
هذي المآذنُ أشرعتْ هاماتِها بتلاوةٍ كي تملأَ الآفاقا
أبوابُ كلِّ الفضلِ تُفتَحُ ها هنا وبها الضياء مُباهياً إشراقا
هذا هو الريَّانُ بابٌ للذي قد صامَ محتسباً له توَّاقا

و تشارك المرأة المسلمة أخاها فرحته بقدوم هذا الشهر العظيم ' فها هي الشاعرة منى البدراني(٣٧) ' تتلهَّف للقاء شهر الصوم المبارك ' السخيِّ بالرحمات ' مترقبة طلعته البهيجة الأثيرة ' مرحبةً بمقدمه بشوقٍ و تَحنان :

رمضانُ أقبلَ والحنينُ ينادي يا واسعَ الرحماتِ خيرُك زادي
أهلاً بطلعتكَ الأثيرةِ نوَّرتْ أهلاً بجودِك مُبهِج الأعيادِ

و لِمَ لا ورمضان خير الشهور ' وفيض الرحمات ' و كنز الجود و التقى ' كما تقول الشاعرة منى البدراني :

رمضانُ يا خيرَ الشهورِ مثابةً أنت الكريمُ المستفيضُ الأروعُ

رمضانُ يا كنزاً تدَثَّر روحَنا بفضائلٍ فيها الجوارح ترتعُ

وقد كان الاستعداد لقدوم هذا الشهر المبارك بالطاعات ' و اغتنام أوقات العبادات ' فيفرح المؤمنون بهلاله و يَخِفُّون لاستقباله .

ولرمضان المبارك مذاقٌ رائعٌ ' وطعمٌ فذ لدى الشاعر المكيّ محمد حسن فقي (٣٨)، فهوَ ينتشي بقدوم هذا الشهر الفضيل المبارك .

رمضانُ في قلبي غمائمُ نشوةٍ من قبلِ رؤيةِ وجهِكَ الوضَّاءِ

قالوا بأنك قادمٌ فتهلَّلَت بالبشر أوجهُنَا وبالخيلاءِ

لِمَ لا نتِيهُ مع البهاءِ ونزدهي بجلال أيامٍ ووحي سماءِ

رمضانُ ما أدري ونورُك غامرٌ قلبي و صبحي مشرقٌ ومسائي

فطعمُ رمضان عندَ شاعِرِنا ألذُّ و أطيبُ من كلِّ مذاقٍ ' بل كأنهُ من ذَوَاقِ الجنة :

وعلى فمي طعمٌ أحُسُّ بأنَّه من طعم تلك الجنَّةِ الخضراءِ

ولِمَ لا وخَلوف فم الصائم أطيبُ عند الله من ريح المسك(٣٩).

و كان الناس ولا يزالون يتراءون هلالَ هذا الشهر المبارك و يفرحون به ' و يهشُّون لاستقباله ... ' و يبتهجون بمرأى هلاله ' فهو بشرى لمحبّيه المؤمنين ' و هو أعظم مواسمِ الخيراتِ ' و كما يبكي المحِبُّ فرحاً بلقاء حبيبه ' يبكي شاعرنا المتيَّم فرحاً بمرأى هلالِ رمضان :

لاحَ الهلال لنا بِبُشْرَى مغرمِ بقدومِ شهرِالصومِ أعظمِ موسمِ

فتهلَّلتْ منه أساريرُ الهدى وغدتْ تهاني الركبِ مائدةَ الفمِ

رمضانُ في قلبِ الزمانِ مساحةٌ للنصرِ والتاريخِ أعظمُ مُفْهِمِ

الصومُ فازَ بالاختصاصِ لربِّنا إذ قال:"لي" بُشرى لكلِّ الصُّوَمِ

الصومُ طُهْرُ النفسِ في دَرَجِ العُلا أهلاً بشهرِ الصومِ أعظمِ موسمِ

و بكيتُ من فرحي و صِرْتُ متيَّماً بكَ و المشاعرُ فوقَ كلِّ متيَّمِ

* * *

إنَّ هلالَ شهر رمضان المبارك يحرك المشاعر ' و يثير كوامن الإيمان في النفوس المؤمنة ' و من عجبٍ أنَّ الصغارَ و الأطفال يفرحون به ' و يبتهجون بمقدمه كفرح الكبار أو أشد ....

و تشيع التهنئة بهلال هذا الشهر المبارك على كلِّ لسان . لأنه يُقبِلُ بالخير والإحسان ،ويُشـــرِق الكون ويســـتضـــيء متلألئـاً ، فيغمُرُ نورُه الأرضَ و السَّـــمـاءَ ، و تستبشر الخلائق هاتفةً لقدومه ، ومن ذنوبها مستغفرة ، يقول الشاعر أحمد سالم با عَطَب(٤٠).

رمضانُ بالحسناتِ كَفُّكَ تزخُر والكونُ في لألاءِ حُسنِكَ مُبْجِرُ

أقبلتَ رُحمَى فالسماءُ مشاعلٌ والأرضُ فجرٌ من جبينِكَ مسفرُ

هتفتْ لمقدمِكَ النفوسُ وأسرعتْ منِ حَوْبِها بدموعها تستغفرُ

و ما إن يَهِلُّ هِلالُ رمضان ، فيُطِلُّ على الدُّنا ، حتى تزدهيَ الكائنات و العوالِمُ فرِحةً مختالةً مبتهجةً بمقدمه ، يقول شاعر طيبة الأستاذ ضياء الدين الصابوني (٤١):

ما إنْ أَهَلَّ على البلادِ هلالُهُ حتى ازدهتْ و انتابها الخيلاءُ

أَضْفَى عليها من روائعِ حسنهِ فالأرضُ تزهو والزمانُ غِناءُ

و يرحِّب الشـــاعر خير الدين وانلي(٤٢) بإقبالِ هلالِ رمضـــان ، فهو نورٌ و بِشْـــرٌ ، و هدايةٌ وسعادةٌ ، و لا جَرَمَ فهو حقاً شهرُ القرآن :

أقبلتَ بالأنوارِ والإيمانِ يا خيرَ شهرٍ خُصَّ بالقرآنِ

.....

و افتنَّ الشـعراء برسـم هلال رمضـان ، و حُسْـنِ اسـتقباله و التهنئة بقدومه ، فأوَّلُ حرفٍ من رسـمِ كلمةِ رمضـــان ، يشـبهُ هلالَ أوَّلِ ليالِيهِ، قال ابن حَمْدِيس الصـقلي الأندلسي (٤٣):

قلتُ والناسُ يرقُبون هلالاً يُشبِهُ الصبَّ في نحافةِ جسمِه

مَنْ يكنْ صائماً فذَا رمضان خَطَّ بالنورِ للورى أوَّلَ اسمِه

و الاستبشار بشهر رمضان، والاستعداد لقدومه سمةٌ لأهل الصلاح و الفلاح ، الذين يغتنمون هذه المواسم الروحانية ، في نهاره، و تجليات ليله ، كما تقول الشاعرة علية الجعَّار (٤٤) رحمها الله:

وقد هلَّ بالنور شهر الصيامِ يجودُ به الله في كلِّ عامِ

فصُمْنا له طاعةً في النهار وقُمنا له خُشَّعاً في الظلامِ

ولعل من الطريف ما ذكر بعض الشعراء ، عن ترائي هلال شهر الصوم ، فقد خرج قوم يتحرَّونَ هلال رمضـان فلم يلحظوه ، إلا أن بعضـهم رآه و أرشـد أصـحابه إلى مكانه في السماء ، فقال في ذلك الشاعر :

عليه تعليق [MK1]:

هلالُ الصومِ غُمَّ على البرايا وما أحدٌ رآه بمقلتيهِ

تَلَفَّتَ نحوهُ حِبّي رآهُ (وشِبهُ الشيء مُنجَذِبٌ إليه)

و هذان البيتان للشيخ محمد علي عيون السود(٤٥) ‘والد الشيخ عبد العزيز رحمهما الله . و يُروى أن هذا الشعر قيل في ترقُّب هلال العيد ‘ فقال :(هلال العيد غُمَّ ...) البيت إلخ ....

و الشطر : (و شبه الشيء منجذب إليه) ‘ صدر بيتٍ للمتنبي و تمامه :

وشِبهُ الشيءِ منجذبٌ إليه واشبَهُنا بدنيانا الطَّغَامُ

و مع قدوم رمضان يأتي السرور ويَهِلُّ البِشرُ ‘ وينتظره المسلمون حتى تكاد قلوبهم تخرج من أضلاعها ‘ و تطير فرحاً بموسم الخير و العطاء ‘ موسم مغفرةٍ تتفتح لأجله أبواب الجنان ‘ إنه شهر الصيام و القرآن ‘ و الذِّكر المبارك الحكيم ‘ يقول زين العابدين بن بَيَّه :

رمضانُ أقبلْ فالزمانُ سرورُ والآيُ و الذِّكرُ الحكيم عبيرُ

فإذا قدمتَ فكل قلب طائرٌ لا يحتويه أضالعٌ وصدورُ

ومن الجنان تفتُّحٌ و تبسُّمٌ للصائمين و بهجةٌ وحبورُ

و يأتي هذا الشهر الفضيل ‘ فيغمر الكون نوراً و ضياء ‘ فينجاب الران والأكدار و الآثام عن القلوب ‘ و يستبشر الكون و الكائنات بمقدمه ‘ فتهتزُّ نشوى ‘ و تَخِفُّ لاستقباله فرحةً فهو شهر التلاوة و القرآن ‘ و شفاء القلوب و النفوس ... ‘ فيا مرحباً و أهلاً بمقدمه الحبيب ‘ الذي تتفتَّح فيه أبواب الجِنان ‘ و تتزيَّن للمؤمنين ‘ و تُصفَّد فيه الشياطين ‘ و لا غروَ فهو شهر الإخاء و الفضل و الرحمة و البركات ‘

يقول عبد الله الخليوي (٤٦):

لمَّا أتى غمر الوجودَ ضياءُ وانجاب عن رانِ القلوب غشاءُ

واستبشر الكون الفسيح وكبَّرت أرجاؤه و اهتزَّتِ البيداءُ

شهرٌ به خيرُ الكلام منزَّلٌ قرآن ربي منةٌ وشفاءُ

رمضانُ هلَّ فعانقتنا رحمةٌ وعَرا الجميعَ محبةٌ ووفاءُ

قد جئتَ أهلاً فاعتراني ما اعترى شوقٌ يخالط مهجتي ورجاءُ

قد صُفِّدَتْ فيك الشياطينُ التي قد نالنا منها أذى ووباءُ

وتزيَّنتْ جنَّاتُ ربّي للذي هو في رضاه دائماً مشَّاءُ

شهرٌ به الرحماتُ أشرقَ نورها فعلا قلوبَ المؤمنينَ سناءُ

و يُؤَدِّي إمامُ الأدبِ العربي الأستاذ مصطفى صادق الرافعي(٤٧) رحمه الله ' ضيفَ العالم الإسلامي العزيز ' الذي يزور المسلمين مرَّةً كلَّ عامٍ ' فيحَيِّهِ بالسلامِ و السلامةِ ' لأنَّهُ يَهِلُّ ندىً و خيراً ' و يبقى شذاهُ فوَّاحاً أبداً في نفوس المسلمين ' فكلُّ الناس يَرقُبونَ مجيئَه و حلوله بشوق وهيام ' فهو الحبيب لعاشقيه المؤمنين ' و لو علمت الأكوانُ ما ينفحنا به من الخيرات و البركات ' لهبَّتْ قاطبة لاستقباله بالطاعات و الصلوات ' فهو خير ضيف كريم يفد على محبيه المؤمنين الكرام :

فديتكَ زائراً في كلِّ عامِ تُحيَّا بالسلامة و السلامِ

و تُقبِلُ كالغمام يفيض حباً و يبقى بعدَه أثرُ الغمامِ

وكم في الناس من دنِفٍ مَشُوقٍ إليكَ و كم شَجيٍّ مستهامِ

و لم أرَ قبلَ حُبِّك من حبيب كَفَى العشاقَ لوعاتِ الغرامِ

فلو تدري العوالم ما درينا لحنَّتْ للصلاة و للصيامِ

بَني الإسلامِ هذا خيرُ ضيفٍ إذا غَشِي الكريمُ ذُرا الكرامِ

ويبدو رمضان باسم الثغر لأحبته المؤمنين، الذين تشخص أبصارهم متشوقة لأنواره، وقلوبهم ظمأى إلى أنواره وتجلياته :

تبدو وثغرُكَ للأحبة باسمٌ كالروض يَزْكُو في الربيع ويَسْعَدُ

والمسلمون عيونُهم ظَمْأى إلى شلالِ نورٍ في السماء يُزَغْرِدُ

يدعو عبادَ اللهِ هيَّا استبشروا فالخيرُ لاحَ و فجرُه المتوردُ

و يستقبل المسلمون رمضانَ بالحب و الترحاب ' بعد غيبةِ عامٍ ' فما أحرانا أن نغتنم أيامه و لياليه ' لندخل الجنة من باب الريَّان ، والصوم مدرسة العزيمة والصبر، كما يقول الشاعر خير الدين الوانلي (٤٨) :

رمضان أقبلَ يا أُولي الألباب فاستقبِلوه بعدَ طولِ غيابِ

عامٌ مضى من عمرنا في غفلةٍ فتنبَّهوا فالعمرُ ظِلُّ سحابِ

و تنبَّهوا و لتَصبِروا لمشقَّةٍ فأُجورُ من صَبروا بغيرِ حسابِ

الصومُ مدرسةُ التَّعفُّف والتقَى وتقارُب البُعداءِ والأغرابِ

شهرُ العزيمةِ والتصُّبرِ والإبا وصفاءِ روحٍ واحتمالِ صِعابِ

صامَ النبيُّ وصحبُه فتبرَّؤوا عنْ أنْ يُشيبوا صَومَهمْ بالعابِ

هذا جزاءِ الصـائمين لربّهم سَعِدوا بخـيرٍ كـــرامةٍ وجنـابِ
لا يدخُلُ الريَّانَ إلاَّ صائمٌ أكرمْ ببابِ الصـومِ في الأبـوابِ

(يشيبوا: أي لم يخالطوا صومهم بما يعيبه، ولم يكدروه بما يفسده).

و تفرح القلوب و تبتهج النفوس، و تُسرُّ الخواطر بإقبال هذا الشـهر المبارك ' الذي لا يُشبهه شـهرٌ في فضـائله ، شـهر التقى والفضـل والصـلاح والصـالحين ، يقول عبد الرحمن الأهدل الشميلة (٤٩) :

أقـبـلـتَ تَزْهو و نورُ الوجهِ وضَّاءُ فـما رُئـي في رُبـاكُـم قَطُّ ظلماءُ
أهلاً بشهرٍ حليفِ الجود مُذْ بَزَغَتْ شمسٌ و صافح زهرَ الروضـةِ الماءُ
تلك المـسـاجـدُ بالتسبيح آهلةٌ كأنَّها بـالـهُـدَى فـجـرٌ و أضـواءُ
والكُلُّ في طربٍ يَشْدو بمَـقْـدَمِه كأنه مـن جـمـالِ الـروح حسناءُ

و يسـتقبل ابن الصـباغ الجُذامي الأندلسـي (٥٠). هلالَ رمضـان بالبشـر و الترحاب ' و ببعض النصائح و العظات :

هذا هلالُ الصومِ من رمضانِ بالـرفْـقِ بانَ فلا تـكـنْ بالـوانِـي
وافـاكَ ضـيـفاً فاغـتنمْ تعظيمَه واجـعـلْ قِـراه قـراءةَ الـقرآنِ
صُمْه و صُنْه و اغـتـمْ أيَّـامَـه و اجبرْ ذِما الضعفاء بالإحسانِ

و يرحِّب الشاعر السعودي عبد القدوس الأنصاري(٥١). بهذا الشهر الكريم المبارك :

تـبـدَّيـتَ للـنـفـس لـقـمـانَـها لـذاكَ تَـبـثُّـك وجـدانَـها
و تـنـثـرُ بـيـن يـديـك الـزهورَ تُـحـيّك إذ أنـتَ ريْـحـانُـها
فـأنـتَ ربـيـعُ الحـياةِ البـهـيجِ تُـنـضَّر بالـصـفوِ أوطانها
و أنـتَ بـشـيـرُ الـقلوبِ التي يُـعـرّفـها اللهِ رحـمـانَـها
فأهلاً و سهلاً بشهرِ الصيامِ يسُلُّ من النفسِ أضغانَها

فرمضـان أفضـل الشـهور قدراً ، و أجلُّها و أعظمها أجراً ' و أجزلها بركةً وخيراً ' فقدومه خير بشـرى للمؤمنين ' و حلوله مقدَمُ سـعادةٍ ويمنٍ ' فالسـرور و الأنس في أيامه الجميلة و لياليه الحِسـان ' ففيها الأنس بالله و الوقوف بين يديه ' و فيها مجالس الذِّكْر و تلاوة كتاب الله الكريم ' يقول محمد إبراهيم الجدع (٥٢):

رمضانُ يا خيرَ الشهورِ و خيرَ بُشْرَى في الزمانِ
و مَطـالـعُ الإسعادِ تَرْفُلُ فـي لـيـالـيكَ الحسـانِ
و مجـالـسُ القرآنِ و الذِّ كْرِ الجلـيلِ أجَـلُّ شـانِ

و ينتظر المؤمنون هذا الشهر المبارك بلهفةٍ، و تهفو إليه نفوسهم بشوقٍ، ويتطلَّعون إلى لقائه ليغمرهم نورُه المتألِّق في أمل و شوق و حنين، كما عبَّر عن هذه المشاعر الإيمانية الصادقة ' الأستاذ الشاعر عدنان النحوي (٥٣):

رمضانُ أقبلْ لم تزلْ تهفو إلى لقياكَ أحناءٌ تَئِنُّ و تُشـفقُ
و تظلُّ أفئدةٌ تَهيجُ لكي تَرَى في الأفقِ يطلُعُ نورُكَ المتألِّقُ
تَرنو لمطلعِكَ العيونُ حنينُها أملٌ و شوق بين ذلك يخفقُ
رمضانُ أقبلْ فالقلوبُ كَليمَةٌ والنفسُ بينَ أنينها تَتَمـزقُ

و لِمْ لا يبتهج المسـلمون بقدوم هذا الشـهر المبارك، وهو شـهر المحبة والسـكينة والرحمة والغفران والرضـوان، وقد اختصَّـه مولانا الكريم لنفسـه، كما في الحديث القدسي: "كلُّ عمل ابن آدم له يضاعف إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به" متفق عليه.

ويتفيَّأ الشاعر ماجد الغامدي(٥٤). ظلال هذا الحديث القدسي العظيم فيقول:

أقبلتَ يا رمضانُ بالرضوانِ وغمرْتَنا بسكـينِة الوجـدانِ
نوراً يَشُعُّ على البريةِ بالتقَى تَرِدُ القلوبُ مَعينَهُ الرَّوْحاني
شهرٌ وفيه على محمدٍ أُنْزِلتْ بركاتُ ربِّ العرشِ بالقرآنِ
شهرٌ على كلِ الشهور مُتوَّجٌ بالصومِ والحسناتِ والغفرانِ
فبرحمةِ اللهِ الكريمِ قدومُـه وتفيضُ منه مناهلُ الغفرانِ
واخْتَصَّه ربُّ العبـادِ لنفسِه فجزاؤُه عِتْقٌ من النيرانِ

ويتفق المسلمون على قدسيَّة هذا الشهر المبارك، و على حبهم إيَّاه، فهو شهرٌ طيِّبٌ مبارك يشفي النفوس، وهو شهر القرآن والذكر الحكيم، ويرحب الشاعر محمد صادق عرنوس(٥٥). بهذا الشهر الفضيل، فأهلاً ومرحباً بقدومه:

أهلاً بشـهر الإنابه و الدعوةِ المستجابَهْ
أهـلاً بخـيرِ طـبيبٍ يَشْفي النفوسَ المصابَهْ
أهلاً بأكـرمِ ضيفٍ قـد اسـتطلنا غيابَهْ
قـد أنَـزلَ اللهُ فيـه علـى الـعبـادِ كـتـابَـهْ

أهـلاً بأفضلِ شهرٍ لَسْنـا نـحُـدُّ ثـوابَــهْ

ويخفُّ المؤمنون لاسـتقبال شـهر الخيرات بفرح ونشـوة، فلِمَ لا تترنَّم الأفواه والقلوب فرحة بشـهر الخير والتوبة والرحمة، وفيه يدعو الله عباده إلى الإقبال عليه، ليغفر ذنوبهم، فيا من أثقلته الذنوب، وأسقمته الآثام والأوزار، هَلُمَّ إلى العزيز الغفار في هذا الشـــهر فقد أطلَّ بطلعته ' حيث يتجلَّى المولى الكريم، على عباده بالرحمة والتوبة، وما عليك أيُّها الإنســان ســوى أن تنهل من جود ربك الكريم المنان، غافر الذنب وقابل التوب، فاغنمْ هذه الأيام و الليالي المباركات، ولُذْ بربك الرحيم منكسـراً بين يديه، في أُوَيْقات السحر، وترنَّمْ بهذه الأبيات فالله قريب سميع مجيب الدعوات:

قد أقبلَ شهرُ الخيراتِ وافـانـا عـهـدُ التـوبـاتِ
فـازْدانَ الكونُ بمقدَمِه و تهادى غيثُ الرحماتِ
شـهـرٌ تـغـشاه الأنوارُ و يـنـادي فـيـه الغـفَّـارُ
يا مَنْ أَشْـقـتْـه الأوزارُ إنـي غـفَّـارُ الـزلاتِ
أبـشـرْ قد جاء الغفرانُ رمـضـانُ كـذلك عـنـوانُ
مهما أَقْصاكَ العصيانُ فالـقُـربُ بـشـهر التَّوباتِ
قد أَنـزلَ ربـي القـرآنا نـوراً بـهُداه أحـيـانا
و بـه رمـضان يَـلْـقانا سبـحانـك مُـعطي الأياتِ
رمضانُ أطلَّ بطلعتِه يتـجـلَّى اللهُ برحمتِه
يا مذنبُ قمْ في دعوتِه و اسألْه بـدمـعِ الأنَّـاتِ
ادعُ الرحمنَ لدى السَّحَرِ و اذْكَـرْه بـقـلبٍ مُنْكَسِرِ
و بدمعِ العينِ المُنْهَمِرِ فاللهُ مجيـبُ الـدعـواتِ

و رمضـــان المبارك يحيي قلوب المؤمنين بهدي ربنا الرحيم ' فهو شـــهر الفضـــل و الفضـــائل ' و فيه تنزَّل وحي الله و كلامه ' الذي يجلو القلوب ' و يطهِّر النفوس ' فتستضيء بنور هديه ' و قد عبَّر عن ذلك الدكتورالشاعر عثمان قدري مكانسي (٥٦):

يُحْيي القلوبَ بهدي رَبِّ راحمٍ و يـمـدُّنا بالنـور و النـفـحـاتِ
شهرَ الفضائل جِئتنا تَجْلو العَنا بالـحُـب تُـنـعشـنا و بالنسماتِ
فـيـكَ الكـتابُ تـنـزَّلتْ أنـوارُه هَـدْياً يُـضِـيء بمُحْكَم الآياتِ
يُزْجي لنا الخيرَ العميمَ بشـرعِه فيمـيسُ دربُ الحبِ بالنسماتِ

في عَشْرِهِ الأولى مكارمُ رحمةٍ يـتْـلوه غفرانٌ مع الحسناتِ

و في هذا يقول خير الدين وانلي(٥٧):

فيه يُصفَّد كلُّ عاتٍ ماردٍ و النفسُ تُلْجمُ أيَّما إلجامِ

ويأتي رمضان فينشر روح الطهر وروحانيته على الكون ' و يطهر الدنا من الأحقاد، ويبرئها من أمراض القلوب، فهو درس للخير والفضيلة والأجر، ومدرسة للبر و التقوى، ومندوحة للصفو والحب والصفاء والتآخي، ونسيان زلات المؤمنين بعضهم بعضاً والعفو عنها، وفي هذا تقول الشاعرة الدكتورة ناهد إسماعيل الديب(٥٨):

شهرٌ يَعُمُّ الروحَ نورُ صفائه ويُطَهّرُ الأرجاءَ من أضغانِ

قد جاء يرسمُ للحيارَى دربَهمْ ويَشيدُ صَرْحَ العدلِ بالأركانِ

رمضانُ يا فرحَ الفقيرِ وقد ثَوَى بالليلِ ينذُبُ حالَه ويعاني

رمضانُ يا شهرَ اليتيمِ ورحمة كَمْ تحتويه برأفةٍ وحنانِ

رمضانُ يا شهرَ الفتوحِ ونفحة قُدسيَّة لكتائبِ الرحمنِ

درسٌ و مدرسة ونورُ بصيرةٍ ومفازةٌ للصفحِ و الغفرانِ

ويستقبل الشاعر محمود مفلح(٥٩). رمضان خجلاً من تقصيره في حق هذا الشهر العظيم لكثرة ذنوبه وأوزاره وخطاياه:

جئتَ يا شهرَ العظيمِ فإنني خَجِلٌ منكَ من خطاي وزوري

و يستقبل الشاعر محمود حسن إسماعيل(٦٠). هذا الشهر المبارك، والضيف الكريم والزائر العزيز، الذي تَحِلُّ الخيرات بقدومه، و البهجة بحلوله، وقد أقسم هذا الشهر أن تكون تحيَّتُه والترحيب به هو صيامَه و قيامه، فإنه قد سلخ العام كلَّه يجوب العالم ' ليفيَ بوعده بالوصول إلينا ' بزيارته السنوية المباركة ' ليُقِرَّ شرع الله و حكمته . فحيَّاك الله يا شهر الخير و البر و الوفاء ' لقد أقررتَ شريعة الصفاء و الصدق و الإخلاص و الإحسان :

أضيفٌ أنتَ حلَّ على الأنامِ و أقسمَ أن يُحيَّا بالسلامِ

قطعتَ الدهر جوَّاباً رقيباً يعودُ مزارُه في كلِّ عامِ

و رحتَ تسنُّ للأجواءِ شرعاً من الإحسانِ عُلْويَّ النظامِ

وكثيراً ما تمتزج التهنئة بهذا الشـــهر المبارك بالفرحة بقدومه ' و إظهار الســـعادة بأيامه و لياليه، و يظهر الشاعر المكيُّ محمد حسن فقي(٦١). فرحته بقدوم هذا الشهر ' فيتهلَّل وجهه بالبشر ' و يباهي بحلول أيامه الجليلة ' التي نزل فيها وحي الله ' ليَعُمَّ الخير ' و يطفح السرورُ ' و تكتسي الوجوه بالبشر لحلول هذا الشهر :

قالوا : بأنك قادمٌ فتهلَّلتْ بالبِشْرِ أوجهُنا و بالخيلاءِ

لِمَ لا نتيهُ مع الهيام و نزدهي بجلالِ أيامٍ و وحْيِ سماءِ

و كيف لا تزدهي الأكوان بقدوم شـــهر رمضـــان ؛ شـــهر الهدى و النور والبشـــر و السرور ' يفيض على الدُّنا باليُمنِ و السعد و البركة ؟ .... يقول فريد قرني(٦٢) :

ألا أقبلْ هدىً و رضاً و نورا و خيراً عامراً يغشى المَـزُورا

نَعُدُّ ليُمن موسمِكَ الليالي نَعدُّ ليومِ مقدمِك الشـهورا

هلالُكَ حُلْو موعدِه ابتهاجٌ يفيضُ على الجميع رضا ونورا

بنور تلاوةِ القـرآن تجلو بصائرنا تُضيءُ بها القبورا

لتملأ بالندى المُهَجَ الصَّوادي وتَروي من سَنا التقوى الصُّدورا

بكُ الأرواحُ ترشفُ وهي ظمأى شراباً منك نسكبه طـهورا

فيـوضاتٌ مـن المنـان تَـثْرى مواكـبُها نعانيـها سطـورا

بأيـاتِ من التنزيلِ تحـي عزائـمنا فتـأبى أن تَخُـورا

نصومُ نقومُ من شوقٍ ووجدٍ و عندَ اللهِ نحتسبُ الأجـورا

وفيك بليلة القَـدر العـطايا وإنَّ لشأنـها الأثـرَ الخـطيرا

وأرضُ المسلمين بكلِّ فَجٍّ تَعُجُّ مساجداً وتموج دورا

فهذا الزائر الكريم يـأتي بـالأجر و الخير و البركـة و الســـعـادة ...، وهو حبيـب المؤمنين، يستبشـرون بهلال السـعد فيه ، إذ هو شـهر النور والهدى ، ولمَّ الشـتات ، كما يقول الشاعر سيد حسين العفاني، مستقبلاً رمضان (٦٣) :

واحة أنتَ في صحاري الوجود ونسـيـم يـرفُّ بـيـن الـورود

إيهِ شهرَ الصيام أقبلتَ تسعى صـادقَ الـوعـدِ وفـيَّـاً بالعـهودِ

زائرَ الخـير أنت فـيـنا كريمٌ و لطيفُ المقام حلوُ الورودِ

وافدَ البِشْر أنت ضـيـف عـزيز والمُضيفون في شتات الجهودِ

باعث النورفي دروب الحيارى أطلق القلب من إسار القيود

أيها الشهر أنت سفر المعالي أنت شمس الزمان بين العقود
بشر التـائبين بشرى أمان وانعتاق من حَرّ نار الخلود
فـهنـيئاً للمتـقـيـن بـشـهر يَرُفُّ الجود من نداه بجود

فرمضان يغسل ذنوب العام، حيث يزرع الناس فيه العبادات، ليُطَهّروا قلوبهم من التقصـير ' و الظلم و المعاصـي و الإسـاءة للآخرين ' إذا ما أُدِّيَ الصـوم على أكمل وجه :

أتى رمضان مزرعةُ العباد لتطهير القلوب من الفسادِ
فأدِّ حقوقَه قولاً و فعلاً و زادَك فاتخذه للمعـادِ

فرمضان دواء القلوب و شفاؤها ' و راحة النفس و رَوحُها و رَيحانُها ' و هو المودة و المحبة و التعاطف و التسـامح و الإخاء ' فيه تنزل الرحمات و تُمحى السـيئات ' و تزول الضـغائن ' فلنبتهلْ إلى الله تعالى في هذا الشهر الفضـيل ' كما يقول الشاعر ضياء الدين الصابوني (٦٤):

رمضانُ إنكَ للقلوب شفاءُ فيك السنا والـجودُ والآلاءُ
رمضان إنَّك بهجة و محبة و تَسامُح وتعـاطُف و إخاءُ
تتنزَّل الرحمات في أيامه و تـعـمُّ فـيـه شـفاعة و رجاءُ
رمضان إنك للقلوب سكينة فيها يزول الحقد و البغضاءُ
يا ربِّ فامْنَحْنا فيوضاتِ الندى للصائمين مآثر و رجـــاءُ

***مكدِّرات الصوم :**

والصـوم ما لم يكن بتمام شروطه و أركانه و آدابه ' فلا يفيد صـاحبه ' و إن سقطت عنه الفريضـة ' إذ الصـوم الحقيقي هو صـوم الجوارح مع الامتناع عن المفطرات كافةً ' و كم من صـائمٍ ليس له من صـومه إلا الجوعُ و العطش ' و في هذا يقول ابن عطيَّة الأندلسي (٦٥):

إذا لم يكن في السـمع مني تصـاونٌ وفي بصـري غَضٌّ وفي منطقي صَـمْتُ
فحظي إذنْ من صوميَ الجوعُ والظما وإن قلتُ إني صـمتُ يومي فما صُمتُ

و هذه بعض ظلال حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما :

" إذا صمتَ فليصمْ سمعك و بصرك ولسانك عن الكذب .... إلخ " الأثر .

"فمنْ لم يَدَعْ قول الزورِ و العمل به ' فليس لله به حاجة أن يدع طعامه و شرابه " .

فليست التقوى و البرُّ في ترك الطعام و الشراب فحسب ، بل لا بدَّ من عقْل اللسان و ضبطه ، فإن مَنْ يَلُوكُ لحوم الناس و يمضغها ، فقد أفسد صومه :

تصومُ عن الطعام و ليس يكفي فما التقوى بتركِكَ للطعامِ

و أطلقتَ الجوارحَ منك حتى أفسدت كلَّ صومك بالكلامِ

و تمضغ في لحوم الناس جهراً فما تجنيه من هذا الصيامِ ؟

أما صفي الدين الحلي فإنه يجعل – مستهزئا - البركة في الصيام بطول يومه، وليس في الأجر والثواب ، ويتمنى عدم مجيئ الشهر ولو بجدع أنفه :

شهر الصيام مبارك لكنما جعلت لنا بركاته في طوله

من كان يألفه فليت خروجه عني بجدع الأنف قبل دخوله

و يؤكد الشاعر محمد علي السنوسي (٦٦) ؛ أن الصوم الحقيقي ليس فقط الامتناع عن الطعام و الشراب ، و سائر المفطرات فحسب ، و إنما الصوم الحقيقي هو مع ذلك الكفُّ عن كل ما حرم الله و البعد عن المنكرات و الموبقات و الغيبة و النميمة ، و نهشِ لحوم المسلمين ، فما قيمة الصوم عن الطعام إذا كان الفطرُ على المنكرات و الآثام :

رمضان رُبَّ فمٍ تمنَّع عن شرابٍ أو طعامِ

ظنَّ الصيامَ عن الغذاء هو الحقيقةَ في الصيامِ

و هَوى على الأعراض ينهشُها و يقطع كالحُسامِ

يا ليته إذ صام صام عن المآثم و الحرام

و استاكَ إذ يستاكُ من كذبٍ و زورٍ و اجترام

و عن القيامِ لو أنه فيما يحاوله استقام

رمضانُ يا شهرَ الضياء الحُرِّ من أسر الظلام

أَطلقْ بأضواء الهدى أسرى النفوسِ من الحُطام

و أنِرْ بقدسِيِّ الصفاء رؤى الحياة من القَتام

وينعى أبو إسحاق الصابي (٦٧)، على من يمسك عن الطعام والشراب، فيصوم عن المفطرات الحسية ، في حين يطلق لنفسه عنانها في الظلم والتعدي ، فلئن أخلى بطنه من الطعام والشراب لقد ملأها بما يحبط عمله، ويفسد صومه:

ياذا الذي صام عن الطعم	ليتك صمت عن الظلم
هل ينفع الصومُ امرأً ظالماً	أحشاؤه ملأى من الإثم

وهذا شاعر آخر يأسى على صائم أذهب أجر صومه وأفسده بالمخالفات الشرعية ، من غيبة ونميمة وكذب وشهادة زور، ولم يأتس برسول الله صلى الله عليه وسلم، وصحابته الكرام رضي الله عنه ،إذ حفظوا صيامهم من الشوائب جميعها :

الصوم جُنة صائم من مأثم	ينهى عن الفحشاء والأوشاب
ماصام من لم يرعَ حق مجاور	وأُخُوة وقرابة و صحاب
ما صام من أكل اللحوم بغيبة	أو قال شراً أو سعى لخراب
ما صام من أدى شهادة كاذب	وأخلَّ بلأخلاق و الأداب
كم من صيام ما جنى أصحابه	غير الظما والجوع والأتعاب
ما كلُّ من ترك الطعام بصائم	وكذاك تارك شهوة وشراب
صام النبي وصحبه فتبرؤوا	عن أن يُشيبوا صومهم بالعاب
أَكْرِمْ بهم في الصائمين ومرحباً	بقدوم شهر الصيد والأنجاب

فضائلُ الصوم و فوائده و أجره:

ولا يخفى على مسلمٍ ما في هذا الشهر المبارك من خيراتٍ وفضائلَ، -كما مرَّ بنا- فإذا هلَّ هلالهُ، هلَّ الخيرُ كلُّه، وحلَّت البركات بحلوله، ففي الصومِ طاعة الرحمن، وامتثال أمر الديَّان، بأداء ركنٍ عظيم من أركان الإسلام، وفي الصوم يحقق الإنسان أسمى الفوائدِ الروحية والبدنية، بصفاء نفسه، و إراحة معدته، ونظافة بدنه من أوضار الطعام والشراب، وآثارها في الجسم، فالصوم صحةٌ للإنسان، وأنجع علاجٌ له.

ويُهرع الشاعر محمود جبر لاغتنام شهر الطهر والتقوى والعبادة، يستمد منه البركاتِ. فرمضان الشهر الأثير عند الله، والشهر المفضل في السماء، فالخاسر الضال من خسِر هذا الشهر وفرَّط فيه:

رمضانُ يا طهر النفوس	هُرِعتُ أستجدِيك رِفدَكْ
وأُعِفُّ يومَك عن حديثٍ	لا يوافق منك قصدَكْ
و أُذيب ليلك في التبتُّل	أبتغي الأنوارَ عندَكْ
أنت المفضل في السماءِ	وفي الكتاب خُصِصتَ وحدَكْ

ضلَّ الذي لا يستطـيـبُ شـذا رُبــاك وعـــاف وِردَكْ
رمضان يا روضَ الخلود أنا اللهيفُ رجوتُ سعـدَكْ

وللصـائم قبلَ ذلك كلِّه و بعدَه، أجر عظيم من الله سبحانه، ذلك أن الصوم هو العبادة التي لا يظهر فيها الرِّياء، فهو لله ‘ و هو ســبحانه الذي يجزي الصـــائمين أجرَهم ‘ بالعفو و المغفرة ‘ و دخول الجنة من باب الريَّانِ ‘ يقول الشـــاعر محمود كِلزي متمثِّلاً الحديثَ القدسـيَّ الشـريف: "الصـوم لي وأنا أَجزي به"، قال الشـاعر محمود كلزي(٦٨):

رمـضـان هلَّ عـلى العوالمِ جنَّةً صوموا تَصُحُّوا يا بني الإنسانِ
(الصوم لي وأنا الذي أجزي به) يا صائماً فادخل من الريَّانِ (٦٩)

وفي رمضـان يجد المؤمن راحةَ نفسـه في طاعة الله، فكما تسـمو نفسـه فيجد راحتَها في الوقوف بين يدي ربه في الصــلاة ‘ فكذلك يجد لَذَّةَ العبادة في الصــيام ‘ فهذا الشــاعر الكبير الأســتاذ عمر بهاء الدين الأميري (٧٠) ينتظر رمضـــانَ بفارغِ الصـبرِ ‘ و يسـتقبله مبتَهجاً ‘ و يصـومُه احتسـاباً لله رغم تقدُّمه في السـن ‘ فالصـوم يمدُّه بالقوةِ و العزيمةِ ‘ و يمنح قلبه الطمأنينة . فالصوم علاج و صحة و عافية :

قالوا : سيـتعـبِكَ الصيامُ و أنت في السبعين مُضْنَى
فأجـبـتُ : بل سيـشُدُّ من عزمي ‘ و يحبو القلبَ أمنَا
و يَمدُّني روحاً و جسماً بالقوى معـنىً و مبنـى
رمضانُ عافيةٌ ‘ فصُمْه تقـىً لتـحـيا مطــمئنا

و يجد شـاعرنا الأميري رحمه الله سـعادةَ نفسـه ‘ و راحتها و شِـفاءَها و سُـمُوَّها في رمضـان المبارك ‘ ففيه يجدد حياته و نشـاطه ‘ و فيه يعالج قلبه و يداوي قروحَه ‘ و ذلك باغتنام أُويقات التجلي . فما أحرانا أن نسموَ بأرواحنا إلى العَلاءِ و إلى الخير و الحق ‘ و ندَعَ سفاسف الأمورِ :

جـدِّدْ حـيـاتـك بالـصـيـامِ فـبالـصيامِ غذاءُ روحِكْ
دارِ الـذي تـشكو بتقوى اللهِ تـبـرا مـن قـروحِـكْ
و اغْـنـمْ أُويـقـاتِ الـتجلِّي في الطريق إلى نزوحِكْ
و ارقَ الذُّرا و دعِ الثَّرى طال المُقامُ على سُفوحِكْ

و المحرومون الخاســرون هم الذين يحسِــبون أن رمضـــان يحرمهم من منافعهم ‘ و ملاذِّهم و شهواتهم كافةً ‘ و قد خاب ظنهم ‘ إذ لم يعلموا أنَّ الخير كلَّه في الصيام، بل فيه الخيرُ والبركةُ والصحة، والفوائدِ جميعِها تتجلَّى فيه، إذا أدَّاهُ الإنسان المسلم على وجهه الصحيح ‘ فهو معصوم بالنهار من المنكراتِ و الموبقاتِ ‘ بتوفيقِ اللهِ ‘ و هو في الليل في بيت من بيوت الله قائمٌ بين يدي ربه .

يقول الصاحب بن عباد، في هذا الشهر الكريم، وفضله وفضائله فوائده العظيمة:

قد تعدَّوا على الصيام و قالوا : حُرم العبد فيه حسنَ العوائد

كذبوا ففي الصوم للمرءِ مهما كان مستيقناً أتمُّ الفوائد

موقفٌ بالنهار غيرُ مريبٍ واجتماعٌ بالليلِ عند المساجد

و يوصي الشاعر المغربيُّ حمدون الحاج السليمي(٧١) الصائمين باغتنامِ هذا الشهر المبارك ‘ بالإقبالِ على الله بالطاعات ‘ والتقرُّبِ إليه بالصـــالحاتِ، فإنْ أكرمك الله أيُّها المسلم، وبلَّغك هذا الشهرَ العظيمَ، واصطفاك لصيامه وقيامه في جملةِ عباده المؤمنين، فأَعِدَّ عِدَّتَهُ بالتخلي عن المعاصي والآثام، واخلعْ ثِيابَ الهوى، وقِفْ على قدم الطاعة صياماً وقياماً وتَهجُّداً، واحفظْ صومك وصُنْه عن كُلِّ ما يجرحُه من الآثامِ أو اللممِ، و لتُحكِمْ قبضـــةَ الطاعةِ على النفسِ الطموح إلى اللهوِ والتَّفلُّت، والْجُمْها لجمَ الخيلِ الجامحة، يقول حمدون الحاج:

وإنْ أتى رمضانُ واصطُفِتَ له فاخلعْ ثِيابَ الهوى وقُمْ على قدمِ

وصُنْهُ عن كُلِّ ما يُرْدِيهِ من حُرُمٍ ولتعْكِسِ النفسَ عكْسَ الخيلِ باللجُمِ

ويَحُضُّ الإمام الفقيه الأديب الشاعر عبد الله محمد القحطاني الصائمين على صَونِ صيامهم، وحِفْظِهِ مما يَخدِشه وذلك بحفظ اللسان عن النطق بالألفاظ السيئة، والكذب وقول الزور والخنا والمنكرات، وكذلك يَحضُّه أيضاً على غضِّ البصرِ عن المحرمات، والبعد عن النفاق، والغيبة والنميمة والرياء، فشرُّ الناس ذو الوجهين:

حَصِّنْ صيامَكَ بالسكوتِ عن الخنا أَطْبِقْ على عينيك بالأجفانِ

لا تمشِ ذا وجهينِ ما بينَ الورى شَرُّ البريَّة من له وجهانِ

فرمضان شهر العبادةِ والبر والفضل والجود والإحسان، شهرٌ تتضاعف فيه الحسنات...، وتُزيَّن المساجد بعُمَّارها من التائبين المخبتين، وتُوصَدُ فيه أبواب الجحيمِ وتُصفَّد الشياطينُ، يقول الشاعر فؤاد القرني(٧٢):

ويا رمضان يا كرماً وجوداً نَخوض البُشريَاتِ بها بحورا

بكَ الحسناتُ يا شهر التجلِّي يضاعفُها لنا المولى كثيرا

وأرضُ المسلمينَ بكل فجٍّ تَعجُّ مساجداً وتموجُ دُورا
وأبواب الجنان مفتَّحاتٌ حُلاها ازْيَّنتْ غُرَفاً وحُورا
وأبواب الجحيم مغلَّقاتٌ وتجتنبُ الشياطينُ الظُهُورا

ورمضان شهر العبادة وموسم الطاعة، والتعالي على الدَّنايا، والترفُّع عن الآثام و هو شهر صلة الرحم والإحسان إلى الناس كافةً ' وهو شهر جودٍ وكرمٍ وغفرانٍ ومَحْوُ آثام، ومن حُرِم خيرَهُ حُرِم الخير والإحسان، وباءَ بالندم والخسران كما يقول الشيخ خير الدين وانلي(٧٣):

رمضانُ تاجُ الهامِ للأعوامِ رمضان شهرٌ ليس كالأيامِ
فيه يُصفَّدُ كلُّ عاتٍ مارِدٍ و النفس تُلْجَمُ أيَّما إلجامِ
الليلُ يُقطَعُ بالقيامِ تهجُّداً و نهاره بتلاوةٍ و صيامِ
و النار تُغلق بابها من أجله و الباب مفتوح بدار سلامِ
رمضان موسم طاعة و عبادة و ترفُّعٍ عن فِعلةِ الإجرامِ
رمضان جودٌ دائمٌ و تواصلٌ و سلامةُ التكريمِ و الإكرامِ
رمضان مغفرةٌ لعامٍ كاملٍ بالعفوِ تُمحى أكبر الآثامِ
من يُحْرِمِ الغفرانَ فالمثوى لظىً و الله ذو فضلٍ و ذو إنعام

ففي رمضان تسمو الأرواح، وتغشاها الجِواء المعطرة بطيوبِ الايمان، ويطهّرها الصوم من الأدران آملةً بالغفران، فرمضان شهر الخير والإحسان، والعمل الصالح والتراحم والمودة والاخاء يقول الشاعر محمد حسن عواد(٧٤):

الخيرُ بادٍ فيك والإحسانُ والذِّكْرُ و القرآن يا رمضانُ
والصومُ فيك عبادةٌ و رياضةٌ تسمو بها الأرواحُ والأبدانُ
والليلُ فيك نسائمٌ هَفْهافةٌ رقصتْ لطيب عبيرها الأكوانُ
والروحُ فيك طليقة رَفْرافةٌ أحلامُها الغفران والرضوانُ
والناسُ فيك تآلفٌ قد ضمَّهم وأظلَّهم ظِلُّ الهدى الفينانُ
بالصبر جئتَ وبالهدى وكلاهما زادُ الشهيد إذا خلا الميدانُ
والعابدون الراكعون تسابقوا يَحْدو بهم نَحْو الصلاة أذانُ
جَمَعَ الشَتِيتَ فكان أكرمَ أُمَّة فَخَرتْ بمجد رُقيها الأزمانُ

ويَتَوجَّه الشاعر إلى رمضان، راجياً إيَّاه أَنْ يفيض بالنور، فيغمر الآفاق سناً وضياءً، ويعيد الناس إلى سالف أيامهم الغراء، يقول الشاعر محمد الأخضر الجزائري، (٧٤):

اِملأ الدنيا شعاعاً	أيَّها النورُ الحبيبْ
أُسْكُبِ الأنوارَ فيها	من بعيد وقريبْ
ذَكِّرْ الناسَ عهوداً	هي من خير العهودْ
يوم كان الصوم معنى	للتسامي والصعودْ

فرمضان أمل النفس المؤمنة، تنتظر قدومه ليغسِل عنها أوضار العام، ورمضان أملُ الإنسانية الظامئة إلى الخير والهدى والسلام، ورمضان حبيب المسلم المخلص، وهو شهر الخير والبر والطاعة والبركة، وقد أكرم الله تعالى به المسلمين، ليَحُطَّ عنهم أوزارهم، وليكونوا في زُمَرِ الكرام، يقول الشاعر محمد السنوسي(٧٥):

رمضانُ يا أملَ النفوسِ الظامئاتِ إلى السلامْ
رمضان يا شهرَ الضياء الحُرِّ مِن أسْرِ الظلام
يا شهرُ بل يا نهرُ ينهلُ من عذوبته الأنام
رمضانُ يا شهر القيام وشهرَ خيرات الصيامْ
أنت الذي قد زرْتَنا لنكون في زُمَرِ الكرامْ
طافتْ بك الأرواح سابحةً كأسرابِ الحمامْ
تسمو بها الصلوات والدعوات تَضطرم اضطرامْ
بيضٌ يجلِّلها التقى نوراً ويَصقلُها الصيامْ
وسَمَتْ إلى النور الذي غمر الوجودَ بها ابتسامْ
نورٌ من الفرقان يرفعها إلى أسمى مقامْ
رفافة كشذى الزهور نقية كندى الغمامْ
عزَّتْ على الأهوء وارتفعتْ على دنيا الرغام
اللهُ جلَّ جلاله ذو البِرّ والمِنن الجسام
آياتُه تشفي السقام و هديه يُطفي الأُوام
رمضان نجوى مخلص للمسلمين و للسلام

وفي رمضـــان يتســـامى المســـلم الصـــائم على الضـــغائن والأحقاد، و الخصـــوماتِ و المهاترات ' و عن كل ما يجرح صـــومه ' يتجلَّى ذلك بما أبدعته يراعة الشاعر المدني الأستاذ محمد هاشم رشيد رحمه الله (٧٦)' يصف سلوكيات الصائم في نهار رمضان :

أنا صائمٌ ومضى يتمتم في خشوع وابتهالِ
وعلى مُحيَّاه المتوَّجِ بالقداسة والجلالِ
فيض من الأنوار يُومض كالصباح على التلالِ
أنا صائم ومضى يتمتم لم يَثُرْ لم يعتدِ
لم تنتفخ أوداجه حَنَقاً ولم يتهددِ
لكنه عبر الطريق وسار نحو المسجد
بسكينة القلب الوقور ونشوة المتعبدِ

ويأســـى بعض الشـــعراء لحال طائفةٍ من الصـــائمين، الذين يُؤَدُّون صومهم على حالٍ طيّبةٍ، لكنهم يتهاونون بشأن صلاة القيام، أو يسهَون عنها ويهملونها، فحبَّذا تأديةُ العبادات كافَّةً على أتمِّها، وبخشوعٍ لله وخضوعٍ، مع دموع التوبة والندمِ في جوف الليل، يقول العلامة القحطاني(٧٧):

أدِمِ الصيامَ مع القيامِ تعبُّداً فكِلاهما عملانِ مقبولانِ
يا حبَّذا عينانِ في غَسقِ الدُّجا من خشيةِ الرحمن باكيتانِ
قُمْ في الدُّجا واتْلُ الكتابَ ولا تنمْ إلا كنومةِ حائرٍ ولهانِ
فلربَّما تأتي المنِيَّةُ بغتةً فتُساقُ من فرُشٍ إلى أكفانِ

نِيَّة الصيام:

ولا بدَّ في الصيام من نيَّة يُبيّتُها الصائم من الليل، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "لا صيام لمن لم يُبَيِّت النِيَّة(٧٨)."، وهي العزم على الصوم، واتفق العلماء على وجوب النِيَّة من أول الليل، وقالوا: لكلِّ يومٍ نيّتُهُ، وقال بعضهم: بل يكفي مرَّةً واحدةً من أول الشهر، ولا ضرورة لتجديد النِيَّة كلَّ ليلةٍ، يقول القحطاني:

بيّتْ من الليل الصيام بنيَّةٍ من قبل أن يتَميَّز الخيطانِ

يجزيك في رمضان نِيَّة ليلــة إذ لـيس مخـتلطاً بعقدٍ ثـانِ

رمضانُ شهرٌ كامل في عقدنا ما حلَّه يوم و لا يومــان

ومن ســنن الصــيام كما جاء عن هدي النبي صــلى الله عليه وســلم (تعجيل الفطور وتأخير السحور)،(٧٩) وفي هذا يقول القحطاني:

عجِّلْ بفِطرِك والسحور مؤَخَّرٌ فكلاهما أمرانِ مرغوبانِ

* * *

***مدفع رمضان:**

وســاد في حين من الدهر وإلى الآن، أن يُسـتقبَل هذا الشـهر الفضـيل ويُودَّع بطلقات المدافع، في كثير من البلاد الإســلامية -كما يســتقبل الملوك والأمراء والزعماء،- وكان قبل ذلك يســتقبل بقرع الطبول، ثم حلَّ المدفع مكانه...، فكان لمدفع رمضـان، ومدفع الإمسـاك والإفطار ومدافع العيد، وقع أثير محبب في النفوس...، يقول الشاعر أسامة العاشق (٨٠):

قَـرَعَـتْ مـدافـعُ صومنا الأسماعا فنهضتُ أرفض أن أكون مَتاعا

و فتحتُ باب القلب أرصُد نبضه فـوجـدتُ نـفساً قد تطير شعاعا

وقصــةُ مدفع رمضــان -وإن جاءت اتفاقاً وعرَضــاً- كما يقولون فإنه كان يستخدم وسيلة للإعلان عن موعد الإفطار والإمساك.

إذ تشير طلقته إلى أنه قد حان وقت أذان المغرب والإفطارِ أو الإمساك ...

ويُذكرُ: أن القاهرة هي أول بلد إســلامي، انطلق منها مدفع رمضــان، إمسـاكاً وفِطراً، وكان ذلك قدراً واتفاقاً غير مقصـود لذاته، ذلك أن السـلطان المملوكي (خشقدم) وصله مدفع جديد في شهر رمضـان سنة (٨٦٥) هجرية، فأمر أن يجرِّبه، واتفق إطلاق القذيفة الأولى حين أذان المغرب تماماً، فحسب الناس أن السلطان أراد إعلامهم بدخول وقت إفطارهم، فاستحسنوا فعله.

وذهبوا إليه في اليوم الثاني يهنّئونه بشـهر رمضـان، ويشـكرونه على حسـن صنيعه بمدفع الإفطار...، ورأى السلطان سرورهم فأمر بالمضيّ في إطلاق مدفع الإمسـاك والإفطار كل يوم، فغدت عادةً سـنَّها السـلطان، وقيل: بل كان بعض الجنود ينظِّفون مدافعهم في عهد الخديوي إسـماعيل، فانطلقت -خطأ- قذيفة دَوَّتْ في ســماء القاهرة، واتفق أن هذا كان حين أذان المغرب، فظنَّ الناس أن الســلطان قد أحدث إعلاناً جديداً عن وقت الإفطار، بطلقة المدفع. وأُعجِبَ الناس بذلك. وعلمت (الحاجة فاطمة) ابنة الخديوي إســماعيل بفرح

الناس وإعجابهم واستحسانهم...، فأمرت بإقرار ذلك الصنيع كل يوم في رمضان إمساكاً و فطراً. ثم في صباح أول يوم العيد، و مساءِ آخر يومٍ منه.

ثم انسحب هذا الأمر على المواسم الدينية كافةً ' و الأعياد ' و الزيارات السلطانية ... ' حتى أصبح ذلك عُرْفاً مقرراً .

و من مصر انطلق مدفع رمضان و شاع في سائر البلاد الإسلامية و انتشر ' وكان يتزامن صوته مع أذان المغرب . و كان بعض الأطفال قبيل لحظات من إطلاق المدفع يصطفُّون مُتَجمهرين في بعض الأحياء ' منتظرين مدفع الإفطار ' يردِّدُون عبارة : " اِضربْ " ' فإذا سمعوا دويَّ الطلقة صاحوا مبتهجين : " هيه .. هيه " ثم غدت هذه العبارة : " اِضربْ اِضربْ " أثيرةً محببةً لدى بعضهم . ويصور لهفة الصائمين لسماع أذان المغرب , يقول الشاعر محمد عواد (٨١) :

وماذنٌ تهفو النفوس لصوتها وتصايُحٌ يجري به الصبيان

و لهذا المدفع أو الطبل قبله أصل عند المسلمين . فإنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قد أباح الإعلام بدخول الوقت ' أو الاستعداد له ' فقال عليه الصلاة و السلام : " إنَّ بلالاً يؤذن بليل ' فكلوا و اشربوا حتى يؤذِّن ابنُ أم مكتوم " .

و يؤخذ من الحديث السابق : " إن بلالاً يؤذِّن .... " إلخ الحديث ؛ مشروعيةُ اتخاذ مناد يؤذن قبل الفجر ليستيقظ النائم ' ويرجع القائم ' استعداداً للسحور في رمضان ' على أن يُتَّخذَ منادٍ آخر معروفٌ بالضبط والأمانة، يتحرَّى وقت الإمساك و صلاة الفجر .

و لعلَّه من هنا جاء ما يُعرف بحكاية : (المسحراتي) أو (المُسَحِّر) التي كان لها أعذب الأثر في نفوس الجيل الماضي ' و ربما انقرضتْ الآن في كثير من البلاد أو في بعض أحيائها ' أو تضاءلتْ. ومهنة (المسحراتي) لقيتْ أثراً عظيماً لدى الناس جميعاً . و من الطريف كذلك أنها لقيتْ أيضاً الأثرَ نفسَه لدى كثير من المستشرقين ' الذين كانوا يجوبون خلال البلاد الإسلامية لأغراضهم ...' و وقفوا على هذه الظاهرة الطريفة ' التي لم يعهدوها في بلادهم و لا يعرفونها ..

و كم كان يَلَذُّ للأطفال سماع أناشيد (المسحراتي) , فيطلبون من امهاتهم ان توقظهم قبيل السحور لمشاهدة (المسحراتي) وسماع تلك الأنغام العذبة الشجية ' يتخلَّلُها قرع طبلته الصغيرة بوتيرة محبَّبَة ' و صوت أليف

حنون منه ‘ يوقظ الناس لتناول سحورهم ‘ بأناشيده العذبة السهلة اليسيرة ‘ غير المُتَكَلَّفة أو المصطنعة التي توافق أهل كُلِّ بلدٍ ‘ أوكل حَيٍّ في البلدة الواحدة ‘ و قد تكون باللهجة العاميَّةِ و إن كان يتخلَّلُها بعض الأناشيد و الابتهالات بالشعر الفصيح ‘ العذب الرقيق ‘ أو ما يُسَمَّى : بالرقائق ‘ و يقف أمام كلِّ بيت ‘ أو يقرع بابه بعصاه ‘ أو يضرب بطبلته ‘ و قد ينادي بعض أهلَ بيت بأسمائهم ‘ و بخاصَّة الموسرين الذين يُجزلون مكافأته آخر رمضان و صباح يوم العيد ..

و قد قلنا : إنَّ كلَّ (مسحراتي) كان يبدع في ألحانه و أناشيده و أنغامه ‘ و يبتكر طريقته ‘ فبعضهم ينادي بين النقرات و السكتات :

" يا أهل الله قوموا على السحور " و بعضهم ينادي : " لا إله إلا الله محمد رسول الله ‘ أسعد الله لياليكم يا آلَ فلان و يُسَمِّي أهل الدار . (يا نايم وَحِّد الدايم) لا إله إلا الله .

وكان بعض (المسحرين) ينشدون من اشعار القصص الشعبي , كما ينشدون بعض الاشعار والنظم في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم ومعجزاته , مثل قصة تكليم الغزالة المنظومة شعراً، للنبي صلى الله عليه وسلم , كما هو معروف في القصص الشعبي , كما كان (المسحراتي) ينشد في العشر الأخير , بتطريب حزين أشعار وداع رمضان , ويكرر فيه الحسرة على قرب انتهاء هذا الشهر , والبكاء على أيامه التي أزفت على الرحيل , متمنياً لو دام رمضان . و بعضهم يتغنى بجملة : " اصحَ يا نايم وَحِّدِ الدايم ‘ و قل نويت بكرة ‘ اصحَ يا نايم وحِّدِ الرزاق ‘ رمضان كريم ... " إلى غير ذلك من العبارات و الرقائق و الأناشيد ‘ تُؤدَّى بصوت رخيم عذب شَجيٍّ .

و يذكرون: أن أصل هذا الفن هو ما كان يعرف: (بفن القُومَا) .

يقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي رحمه الله : وهذا نوع من الزجل , على بحر الرمل , وقيل : إن أول من اخترعه : ابن نقطة , برسم الخليفة الناصر , والصحيح أنه مخترع من قبله , وإنما كان الناصر يطرب له , فاشتهر في زمنه , وهو من اختراع البغداديين , قيل : كانوا ينشدونه عند السحور في رمضان , كما يفعل المسحرون بالقصص والأدعية لعهدنا , وسمي بذلك من قول المغنين : (قُوما نتسحر قُوما), وجعلوه على وزن هذه الكلمات الثلاث , ثم فرعوا عنه فروعاً ..." إذن هذا الفن قديمٌ مأخوذ من قولهم : (قوموا ‘ أو قُوما إلى السحور) .

و(قُوما) خطاب المثنى ' على طريقة العرب قديماً ' من مثل قولهم : (قفا نبكِ من ذكرى ... إلى آخره ' و قفا ودِّعا نجداً ... و خليلَيَّ ... و يا صاحبَيَّ ...) إلخ .

و كادوا يُجمعون أن هذا الفنَّ عراقيُّ النشأة ' شاع في القرن السادس الهجري ' ووزنه من الرمَل ' و يذكرون أن رجلاً يُسَمَّى : أبا نقطة كان يوقظ الخليفة على السحور ببعض رقائقه العذبة الشجيَّة ...' فأُعجب الخليفة بذلك و رتَّب له مرتباً ... ' فلما مات أبو نقطة ' و كان له ولد غلام حصيف، اسمه: نقطة , كما ذكر الأستاذ الرافعي فأراد أن يُعلِم الخليفة بمكانه بعد موت أبيه و كان يجيد بعض النظم ' و هو ذو صوت عذب حسن فجمع بعض رِفاقِه الغلمان ' مغتنماً أول ليلة من رمضان ' فوقف بأصحابه تحت شرفة قصر الخليفة ' و راح ينشد :

يا سيِّدَ الساداتْ لك في الكرم عاداتْ

أنا ابن أبي نقطة تعيش أنت و تبقى

أنا أبي قد مات

فأُعجب به الخليفة و أقره مكان أبيه ' و رتَّبَ له عطاءً سخيَّاً ....

ثم تطَوَّر عمل " المسحراتي أو المسحر " و شاع في سائر الأقطار ... و كان أول من نادى بالتسحير والي مصر ' لدى الخليفة المنتصر عتبة ابن إسحاق سنة ٢٣٨ هجرية .

و كان يصحب (المسحراتي) في بعض الأسحار ولدُه الصغير حاملاً بيده (فانوساً) مصباحاً ليضيء له الطريق ' و أحياناً يخرج مع الصبي بعض رفاقه ' و كلُّهم يحمل بيده (فانوسه) مصباحه الصغير ' بفرحٍ و غبطة ' ثم شاع الأمر، و أصبح هذا الفانوس كأنما هو تعبير عن التهيُّؤ للإمساك عن الطعام و الشراب، و بدء الصوم ' يقول علي بن ظافر(٨٢) :

ونجمٌ من الفانوس يشرق ضوءُه ولكنه دون الكواكب لا يسري

ولم أرَ نجماً قَطُّ قبل طلوعه إذا غاب يَنْهى الصائمين عن الفطر

ثم شاعتْ عادة حمل الأطفال (للفوانيس) المصابيح ' يخرجون بها ' كلٌّ يُباهي بفانوسه بنشوة و بهجة ...

و كما كان (الفانوس) يُضاء عند السحور ' فكذلك أيضاً يضاء عند الإفطار ' مع بَدْء أذان المغرب ' فأصبح ضوء الفانوس إشارة البدء للأذان و الإفطار .

و أبدع الشـــعراء الكلامَ على هذا الشـــهر المبـارك ‘ و أحوالـه و مظاهره و أوقاته و فانوســه ... ‘ فهذا القاضــي أبو الحســن ابن النبيه، (٨٣) يشبّه مِئذَنةَ الجامع في رمضـان ‘ و قد رُفِعَ عليها الفانوسُ ليلاً ‘ فكأنها صيَّادٌ ماهرٌ وقف مترقِّباً غزالةً ليصِيدها :

حبَّذا فـي الصـيـامِ مِئذنةُ الجامع و الليل مسبِلٌ أذياله

خِلتُها و(الفانوسَ)إذ رفعَتهُ صائداً واقفاً يرقُب غزاله

فالمسـجد و المئذنة و الفانوس ‘ و ليالي رمضــان ‘ مما يبعث البهجةَ في النفسِ ‘ و يثير حُبَّ تلك الأيام و الشـــوق إليها ... ‘ في تلك الجِواء الروحيَّة العاطرة ‘ العبقة بطيوب الأنسِ و الأمنِ و الإيمان ....

* * *

***صلاة التراويح :**

إنَّ التراويحَ للخيراتِ جامعةٌ فيها المصابيح تزهو مثلَ أقمارِ

صلاة التراويح: وهي صلاة القيام في ليالي رمضان، وتؤدى من بعد صلاة العشاء، وهي سنة مباركة للرجال والنساء، وقد رغَّب النبي صلى الله علية وسلم بأدائها من غير عزيمة، فقال: (من قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه .) ( )

وقد صـلاها الرسـول صـلى الله عليه وسـلم في مسـجده الشـريف، وصـلى الصـحابة الكرام رضـي الله عنهم، بصلاته ليلتين، فلما كانت الليلة الثالثة كثر الناس، فلم يخرج إليهم رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم فلما أصـبح قال : (قد رأيت صـنيعكم ، فلم يمنعني من الخروج إليكم ، إلا أني خشيتُ أن تفرض عليكم .) ()

وكثر القول في عدد ركعاتها، فلما كان عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضـــي الله عنه ، صـــلاها بالناس عشـــرين ركعة ، وتابعه عثمان و علي رضـــي الله عنهم أجمعين على ذلك ، وكذا الأئمة رحمهم الله تعالى .() .

فصيام نهار رمضان فرض واجب على كل مسلم ومسلمة ، أما قيام ليله فسنة شريفة مباركة ، وفيها تنشيط للجسم وراحة للبدن. يقول العلامة القحطاني رحمه الله :

وصيامنا رمضان فرض واجب وقيامنا المسنون فـي رمضـانِ

إن الـتـراويـح راحـة فـي لـيـلـة ونشاط كل عويجز كســلانِ

صـلـى النـبي بـه ثـلاثاً رغـبـة وروى الجـمـاعـة أنـها ثـنـتـانِ

ورمضان شهر الخير و البركة و الروحانيَّات و التجليَّات ‘ و شهر القرآن ‘ شهر مضاعفة الحسنات ‘ و الصدِّ عن السيئات ‘ شهر الطاعة و حلاوة العبادة ‘ و من مِنَّا لم يذق الفرحةَ الأولى .. من هاتين الفرحتين اللتين وهبهما الله سبحانه للصائم الفرحة الأولى عند الفطر ‘ و نرجو الله أن يذيقنا الفرحة الثانية ‘ عند لقاء وجهه الكريم ‘ فعند المغرب يتحَلَّق الجميع على مائدة الإفطار فرحين مغتبطين ‘ مُتَضرّعين إلى الله عز و جل .. أن يتقبل الأعمال.. ‘ فإذا ما أفطر الصائمون و استراحوا شيئاً ما ‘ هُرِعُوا للوقوف بين يدي ربنا سبحانه مبتهلين ‘ مقبلين راجين القبول في صلاة التراويح :

جاء الصيام فجاء الخير أجمعُهُ ترتيلُ ذِكْرٍ و تحميدٌ و تسبيحٌ

فالنفس تدأب في قول و في عملٍ صوم النهار و بالليل التراويح

و صلاة التراويح سنةٌ شريفة ‘ و رياضة للبدن ‘ و نشاط للنفس و راحة للفؤاد و ضياء للقلب ، يقول محمود عارف(٨٤) :

فيه التراويح المضيئة مرتع للقلب للإيمان يَعمرُهُ التقى

و يَحرِصُ الصالحون الأتقياء ‘ و جُلُّ المسلمين على أداء صلاة القيام و التراويح و التهجُّد ‘ يتعرضون لنفحات الله و رضوانه ‘ و هم يدأبون في التقرب إلى مولاهم الجليل بالطاعة ‘ و الأعمال الصالحة في ليالي رمضان المبارك ‘ ليالٍ قدرها عظيم و خيرها عميم ‘ بل فيها ليلة خير من ألف شهر :

الليل يُقطَعُ بالقيام تهجُّداً ونهارُه بتلاوةٍ وصيامِ

فما أروعَ وأجلَّ وأشرف هذه الأوقات:

أين أهل القيام لله دأباً بذلوا الجهد في رضا الجبار

أنتمُ الآن في ليالٍ عِظامٍ قدرها زائدٌ على الأقدار

وبصلاة التراويح تسمو الأرواح إلى أطهر مرتقى ‘مضيئةً للقلوب المؤمنة ‘يقول محمود عارف :

رمضانُ محرابُ العبادة للورى تسمو به الأرواح أطهرَ مرتقى

فيه التراويح المضيئة مسبحٌ للقلب للإيمان يَعمُرُ مِرفَقَا

و ساعات نهار رمضان طيبة مباركة ‘أوقات طُهرٍ و عبادة و ذِكْر و تقرُّب إلى الله ‘و ساعات ليله قيامٌ و تراويح و تهجُّد ‘و بذلك تحلِّق روح المؤمن ‘ و تسمو إلى الرحاب المطهرة . يقول شاعرنا :

ساعاته عمر الزمان مليئة بالذِّكر حيث العمر عاد محلقا

و يجب اغتنام أوقات رمضـــان المبارك؛ نهاره و ليله ‘ففي النهار صـــيامٌ وذِكْر الله و تلاوة قرآن ‘و في الليل قيام و تراويح و تهجُّد .

و كان في بعض البلدان الإســـلامية ‘ و في ليلة كل جمعة ‘ يرقى المؤذن مِئذنَةَ مسجِدِهِ ‘ يُنشد بعض الابتهالات قبل أذان العشاء ‘ و قبيل آذان الفجرِ أيضـاً ‘ و هي بمثابة التنبيه و الاستعداد للأذان و الصلاة ‘ و يُسمُّونها : (التسابيحَ) ‘ أو التسميع ، وكان لها مذاق خاص عندهم ‘ يقول الشاعر عدنان مُردَم بك :

أيُّ سحرٍ نفَثَ الداعي الذي هبَّ في جنـح الدجا يدعو الإلها
التســـابيـحُ التـي ردَّدَهـا في الدُّجـا فاح من الصبح شذاها

و يردِّدُ الجميع مع المؤذن عبارات الأذان العظيمة منشدين مع الابتهالات :

اللهُ أكبـر ‘ اللهُ أكبـر تسبيحة العالم المطهر....
تسبيحة العابدِ المطهر للخالق المبدع المصورِ
اللهُ أكبر اللهُ أكبر اللهُ أكبر

و ذكر برهان الدين الحلبي في سيرته (السيرة الحلبية) : " أن أول ما أُحدِث التسميع في الأسحار كان في زمن موسى عليه السلام ‘ حين كان في التيه ‘ و اسـتمرَّ التسـبيح إلى عهد نبي الله داود عليه السـلام ‘ فرتَّب جماعةً يقومون به من ثلث الليل الأخير إلى الفجر .... و أول حدوثه في مِلَّتنا كان بمصـــر ‘ أمر به أميرها من قبل معاوية رضـــي الله عنه : مســـلمة بن مخلد رضـــي الله عنه ‘ فإنه لما اعتكف بجامع عمرو بن العاص رضـــي الله عنه ‘ ســـمع أصـــوات النواقيس عاليةً ‘ فشـــكا ذلك إلى شـــرحبيل بن عامر عرِيف المؤذنين بجامع عمرو ‘ ففعل ذلك من نصـــف الليل إلى قريب الفجر ... " (السيرة الحلبية : ٢/ ١٠٣) . و الله أعلم

العشر الأخير والاعتكاف

مضتْ عَشْرٌ فعشرٌ مسرعاتٍ وعشرٌ أسْرجتْ ظَهرَ البُراقِ
مضى الثلثان ياقلباه فالحق على الثلث الأخير من السباقِ

إذا حلَّتْ العشر الأخيرة المباركة، دخل المؤمنون في سباق مع الزمن في الطاعاتٍ وإكثار العبادة، فهذه العشر الأخيرة لُباب رمضان، وزمن الغنيمة منه، ووقت يستدرك بالعمل الصالح مَنْ فرَّط فيه، أو أضاع وأهمل، ففيه يتجرد المؤمنون لاغتنام ساعاته المباركة، متفرغين للعبادة تعويضاً عما فاتهم، وذلك بانقطاعهم التام للعبادة، بتأدية سنة الاعتكاف، تأسياً برسول الله صلى الله عليه وسلم.

والاعتكاف في اللغة : لزوم الشيء، وحبس النفس عليه، خيراً كان أم شراً(٨٥)، والمرادُ به هنا : لزوم المسجد والإقامة فيه، بنيه العباده، والتقرَّب الى الله تعالى، بالصلاة والذِكْر وتلاوة القرآن، مع الصيام في النهار (٨٦).

وقد كان من هدي النبي صلى الله عليه وسلم وسنته الشريفة؛ ان يعتكف في العشر الأخير من كل رمضان، فلمَّا كان العام الذي انتقل فيه إلى الرفيق الأعلى ، اعتكف صلى الله عليه وسلم عشرين يوماً. وللاعتكاف أقسام وشروط وأركان وآداب ، وقد بحث كل ذلك الفقهاء مفصَّلاً.

وقد يتشابك في الشعر الرمضاني الكلامُ على التراويح مع ليلة القدر، مع الاعتكاف، وذلك لقرب هذه العبادات الشريفة بعضِها من بعضٍ.

وقد عرض الشعر الرمضاني لعبادة الاعتكاف هذه، كسائر أغراض الشعر الرمضاني

فهذا شاعر يعجب من سرعة انقضاء رمضان، إذ جاء الشهر الفضيل وأوشك على الرحيل بغتة، ولم يشعر بدنو رحيله، ولم يغتنم هذا المسلم هذه العبادة العظيمة، فيتساءل مستنكراً: كيف حلَّ الشهر الفضيل وأزِف رحيله؟ وأين المساجد الزاهية العامرة بالمصلين؟ الآهلة بالخير والبشر، يعمرها المؤمنون، وكيف اوشكت التراويح على الرحيل؟ وكيف غفل المسلم عن الاعتكاف والتجرد لله في هذه العشر المباركات ؟ يقول الشاعر خالد بيطار(٨٧) :

قالوا: أتى رمضان ثم مضى وتكاد تأتي ليلة القدر
فعجبت من أمري وأمرهِمُ رمضان يمضي ثم لا أدري
أين المساجد وهي ضاحكة مغمورة بالخير والبشر
أين المآذن في تلألئها بالنور والتكبيرإذ يسري
أين التراويح التي أهْوَى وأشدُّ في ركعاتها أزري
والاعتكاف وكم أهْفو له مُتجرداً لله في العشر

ورمضـان شـهر الخير والفضـل، وطاعة الاعتكاف لله تعالى، مع لزوم آدابه بتجنّب الآثام وما يجرح هذه العبادة العظيمة، فرمضـــان شـــهر التقوى والمغفره، وعلى المسلم اغتنام لياليه المباركات، فهو مدرسة البرّ والرضوان، وحريٌّ أن يستمرالمؤمن في الإخلاص الى ما بعد رمضـان، ولا يقتصـر في عمل الخير على شهر الصيام فحسب، يقول الشاعر عبدالرزاق الخالدي: (٨٨)

قد جاء شهرالاعتكاف فكن به ... في طاعته تُعطى رفيعَ جنانِ
وتجنَّـب الآثـامَ والـزمْ تـوبـةً ... تُقصيكَ عن لهوٍ وعن نسيانِ
وآفاكَ شهرُكَ شهرُأرباب التقى ... رمضانُك الموسومُ بالـغفرانِ
فاغنـمْ ليـاليـه وكـرّم يـومَـه ... بالصوم عن زُورٍ وعن بُهتانِ
شهرُ الرضا فيه الجنان تفتحتْ ... أبْوابُـهـا كَـرَمـاً مـن الـدَّيَّـانِ
رمضانُ مدرسةٌ ومَشْفَى فالتمسْ ... فيه الشفاءَ ومـنهـجَ الـرحـمـنِ
لا تجـعـل الـتَّـقـوى عـلـى أيـامِه ... وقفاً وبعدُ تخوض في العصيانِ

فلله سبحانه في العشر الأواخر في رمضان، ليلة عظيمه مباركة، ألا وهي ليلة القدر عظيمة الأجر مليئة الخير:

ولله في العشر الأواخر ليلةٌ ... لقد عَظُمتْ أجراً كما ملئت خيرا

و تُلتَمسُ هذه الليلة المباركة في العشـرِ الأواخرِ من رمضـان ' و تُتَحرَّى في وتره ' حين يبدأ القمر بالأفول و يدنو إلى المحاق :

هلالُ الـنور مـال إلى المحاقِ ... و شـهـر الـخـيـر آذن بالفراقِ
مضتْ عَشْرٌ فعشرٌ مسرعاتٍ ... و عشرٌ أُسرِجَت ظهر البراق
مضى الثلثانِ يا قـلـبـاهُ فالحقْ ... على الثلث الأخير من السباقِ
أمَـامَـك لـيـلـةٌ عـن ألـفِ شهرٍ ... مـحـجَّبَـةٌ لـدى العشر البواقي
رَجَـوتُـكَ يـا إلـهَ الـكـونِ ثوباً ... يـواري سَـوْءَتـي يوم التلاقي

و هذا شـاعر آخر يهيم بهذه الليالي الميمونة ' ليالي العشـر الأواخر من رمضـان ' و قد شـــغفتْه حباً ووجداً ' فارتوى من فيض نفحاتها ' فكاد يطير بروحه محلِّقاً في ســـموات الطهر ' مناجياً ربَّه الرحيم ' متضـــرّعا إليه أن يغمره بالعفو و العافية ' فيطهّر بدنه من الأسـقام و نفســه من الأوزار ' ببركة هذه الليلة الكريمة المباركة ' فضلاً من الواحد الديان ' فهي ليلة من أبهى الليالي شرفاً و قدراً ... '

كما لا يفوته أن يشـــمل بالدعاء أهله و ذويه و أحبابه و أصـــدقاءه .. ‘ فليلة القدر سانحة ‘ ربما لا يدركها المرء نزلةً أخرى :

شُجوني في شِفاه الحرف سَكرَى ولـم أشـربْ مـدى الأيـام خـمـرا
و لـكـني شـربـتُ فُـيـوض عـشْرٍ تلي عشراً تلي في الصوم عشرا
أيـا عـشـر الأواخـر عـطِّـرِيـنـي وزُفِّـي نـاشـراتِ الـخـيـر نـشرا
أكـاد أطـيـرُ مـن فـيـضان وجدي ففـيـضـي بـي تـراويحاً و ذِكْرا
ألا يـا لـيـلـة الـقـدر احـضـنـيـنـي وزُفِّـي لـي مـن الـرحـمن بُشرى
لـعـلَّ الله يـغـمـرنـــي بـعـــفـــوٍ فـلا يُـبـقـي مـن الأوزار وزرا
إلـهَ الـعـرشِ أَكـرِمْـنِـي بـوصلٍ بـأبـهـى لـيـلـة شـرفـاً و قـــدرا
ووفـقـنـي لـهـــا دهـــراً مـديـداً ومَـن أحـبـبـتُـــه سـراً و جـهـرا
ووفـقـنـي و أحـبـابـي جـمـيـعـاً إلى نـهـج الـهـدى دنـيـا و أخرى

إن حلول العشر الاواخر من رمضـان بشرى خير وفضـل وانعام، يتجلى في لياليها الباري سـبحانه وتعالى فيكرم عباده بالرضـا والعتق من النيران، ويجزل لهم الاجر العظيم، ولِمَ لا ؟ وفي هذه العشـــر الأخير ليلة تعدل ألف شـــهر، فهنيئا لمن أدركها، وفاز بشذى عَرْفها :

أيا معشرَ الصُّوَّامِ وافتكمُ البُشرى وقـد نـشرَ الـبـاري بمـدْحِكُمُ ذِكْرا
خُصصتم بعَشْرٍ فيها عتقٌ ورحمة وقد أجزلَ الرحمن للصائم الأجرا
ولله فـي الـعـشـرِ الاواخـرِ لـيـلـةٌ لقد عَظُمَتْ أجْراً كما مُـلِـئتْ خَيرا
فـطـوبَـى لـقـومٍ أدركوها وشاهدوا تَـــنـــزَّل أمـــلاك بـهـا آيـةٌ كـبـرى
وفـازوا بغـفرانِ الإلـهِ فـأصـبحـوا يُشَمُّ عليهمْ من شذى عَرْفها عِطرا

ليلة القدر :

يـا لـيـلـةَ الـقــدر يــا مــنــيـةَ الـعـمـرِ يا درَّة الـشـهـر يا ليـلة القدرِ
شهرالهدى رمضان والصوم والإحسان فيه أتى الفرقان في ليلة القدرِ
طـوبـى لـمـحـيـيـهـا يـدعـو يـصـلـيــهـا كل المنى فيها في ليـلة القدرِ
حـيَّـرتِ أفـكـاري فـي سِـرّك الســاري يا منحة الباري يا لـيلة القدرِ
الـروحُ والأمــلاك فــي قُـبَّــة الأفــلاك كانت مع النسَّاك في ليلة القدرِ
الــراكـع الــسـاجـد والــذاكـر الـعــابـد والـقـائـم الـقـاعـد في ليلة القدرِ
كُـلٌّ تــمــنَّـــاكِ يـحـظـى بـلـقــيـــاكِ والـلـه أعـلاكِ يــا لـيـلـة القدرِ
خـيـرٌ مـن الـعـمـر ألـفٌ مـن الـشـهـر سِلْـم إلـى الـفجر يا ليلة القدرِ
تــذكــار قــرآن يـسـمــو بــإنــســان يـزداد إيـمـانـي فــي ليلة القدرِ
قــمْ أيُّــهــا الـنــائـم و اطـلـبْ من الدائم مـا أسـعـد الـقـائم في ليلة القدرِ
يــا خـالـق الأكـوان أدْرِكْ ذوي الإيمان بـالـعـفـو والغفران في لية القدرِ
و ارفــعْ لِـوا الإسـلام تُـنـشـرْ لـه أعـلام كي تُسعد الإنسان في ليلة القدرِ

في هذا الشـــهر المبارك ليلة القدر: (و ما أدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خيرٌ من ألف شـــهر * تنزَّل الملائكة و الروح فيها بإذن ربهم من كل أمر * ســـلام هي حتى مطلع الفجر) سورة القدر.

فليلة القدر ليلةٌ عظيمةٌ طيّبةٌ مباركة ، بل هي جائزةٌ ســـنِيَّةٌ ، اختصَّ الله بها نبيَّه محمداً صـــلى الله عليه و ســـلم ، و أمتَه من بعده ، يتفضَّـــلُ بها الكريم الباري على أحبابه ، و قد سُمِّيت بهذا الاسم لعظم مكانتها، و سموّ منزلتها، و شرف قدرها، و قد امتنَّ الله سبحانه و تعالى على عباده بهذه الليلة العظيمة ...

فيا أيتها الليلة المباركة امنحي أيامنا وأوقاتنا جميعاً فضـــل الله العظيم الكريم المنان، يقول الشاعر السيد الصديق حافظ :

ياليلةَ القدْرِ امْنحَي أيامَنا فضْلَ الكريمِ المنعمِ الفتاحِ

أجلْ إنها خير من ألف شهر ، تنزَّلت فيها ملائكة السماء بالهدى و الفرقان ، و الخير و البركات ، و إجابة الدعوات ... ، يقول صلاح عفيفي(٨٩) :

في ليلةِ القدرِ الهدايةُ أُنزلتْ فيها مـلائـكـةُ السماء تنزَّلتْ
يا ليلةً عن ألف شهرٍ فُضِّلتْ يحلو دعاؤك و القلوبُ تبتَّلتْ

فليلةُ القدر أجلُّ ليلةٍ في حياة المسلم ... ' كما يراها الشاعر الأستاذ عمر بهاء الدين الأميري ' و لا ينالُ خيرها و فضلها و بركاتها و فيوضها إلا من أخلص في طاعة مولاه ' و عندها يفيض النور على قلبه ' و إنْ لم يرَ الآخرون سُطوعَها و بُروقَها و بريقَها ' لكن الموفَّق من تمنحه السَّعدَ و السعادة و تُورِده موارد الخير و الهناء ' و تسمو به و ترقى بروحه لتهبه السَّنا و المُنى و الخيرَ و البركة و الجدوى :

أبَرقٌ ؟ و كيف و ما أرعدا أمِ النور في البون حُرَّاً بَدا
و من أيِ أفقٍ ؟ ثرىً أم ذُراً ومن أيِّ نبعٍ أفاض الندى
و في ليلة القدر غفوٌ وصحوٌ متى كم و كم أزالا سرمدا
تزفُّ بيَ المجدَ و السعدَ في تجلٍّ و تورِدُنيَ الموردا
و قال ليَ القلب : إني هنا لدى السَّنا والمُنى والجِدا
إذا كدتُ أُزلَقُ عن أوجهٍ تبدَّتْ و مدَّتْ لجذبي يدا

و لِعِظَم هذه الليلة المباركة فقد هنَّأ الشاعر أبو بكر الصنوبري(٩٠) ممدوحه بحلول هذا الشهر المبارك داعياً الله له بنيل مراده ' و بالظَّفر بكل ما يتمناه ' و أن يَقِيَهُ الله كل سوء و مكروه ... ' ثم ذكر الشاعر تفرُّدَ ممدوحه و تميُّزَه عن أقرانه و فضْلُه على الناس كفضل ليلة القدر على سائر الليالي :

نِلْتَ في ذا الزمان ما ترتجيه و وقاكَ الله كلَّ ما تتقِيه
أنتَ في الناس مثل شهرك في الأشْ هُرِ أو مثل ليلة القدر فيه

وما ذلك إلا لأن في هذه الليلة المباركة من عظيم المنح الإلهية ولشأنها الأثر الكبير، كما قال الشاعر فريد قرني(٩١)، مخاطباً رمضان :

وفيكَ بليلة القدر العطايا وإنَّ لشأنها الأثرَ الخطيرا

وهذه الليلة المباركة الطيبة لمن حَظِيَ بقيامها ' لم تغب عن بال الشعراء ' فهذا شاعر قديم يشبه محبوبته بجملة تشبيهات رائعة ' حتى يختمها بأنها تشبه ليلة القدر ' و أنها تفوق أترابها حسناً و جمالاً ' و بهاءً و فضلاً ' كما فُضِّلَت على ألف شهر ليلة القدر، كما قال الشاعر:

فلو كنتِ ماءً كنتِ ماءَ غمامةٍ و لو كنتِ دُرَّاً كنتِ من دُرَّةٍ بِكرِ
و لوكنتِ مسكاً كنت من مسك طيبةٍ ولو كنتِ طيباً كنتِ من عنبر البحر
و لو كنتِ لهواً كنت تعليل ساعة و لو كنتِ نوماً كنت إغفاءة الفجر
و لو كنتِ ليلاً كنتِ قَمراء جُنِّبتْ محاق ليالي الشهر أو ليلة القدر

و قد انسحب بعض الشعراء على هذا النحو الذي أغراهم ‘فقال بعضهم:

فلـو كـنتِ عيشاً كنت نِعمَة جَـنَّةٍ و لو كنتِ نوماً كنت تَعرِيسةَ الفجر

و لو كنتِ يوماً كنتِ يومَ تواصُلٍ و لو كـنـتِ ليـلاً كنت لي ليلةَ القدرِ

و لا يعزب عن بالنا قول المجنون أيضاً :

أما و الذي لا يعلم الغـيـبَ غـيرُه بقـدرته تجري السفَائن في البحرِ

لقد فُضّلَتْ ليلى على الناس مثلما على ألفِ شهرٍ فُضّلتْ ليلةُ القدرِ

ولقد فضـلت هذه الليلة المباركة على سـائر الليالي والشـهور، فعبقت فيها أنسـام رضـوان الله ، وتجلياته على عباده المؤمنين بالعفو والإكرام كما قال الشـاعر عبدالرحمن صالح العشماوي(٩٢)

في ليلة القدر أنفاس الرضا عبقٌ قد خاب من لم ينلْ عفواً وغفراناً

على أن كثيراً من الشـعراء قد نوَّهُوا بهذه الليلة المباركة ‘فأبانوا فضـلها، و امتدحوا أجرها و برها ‘و حسـناتها و بركاتها و فضـائلها ‘و أعلَوا من شـأنها، و اسـتنهضـوا عزائم المؤمنين لإحيائها بالذكر و الصلاة ‘و سائر القربات و الطاعات ‘داعين أُمَّتهم إلى الالتفات إلى ماضـيهم المجيد ‘يقول الشـاعر العراقي عبد القادر رشـيد الناصـري رحمه الله :

يا ليلةَ القدر الـمُـنـيـفـة أشـرقـي فجـراً بـآفـاق الـهـدى وفـراقدا

قُصِّي على الأسـماع من أنبائها مـا يرجِع التاريخ منها حاسدا

جـبـريـلُ بـالآيـات يـهفو خاشعاً نحو الأمينِ مراوحاً و معاودا

و كذلك يعلن الشاعر المعاصر أحمد مخيمر ‘ إشراقات هذه الليلة المباركة ‘ فيقول :

ليلةُ القدر عندنا فرحة الـــعُـمْـرِ تـدانـتْ عـلـى سـنـاهـا السماءُ

في انتظار لـنورهـا كـل لـيـل يتمنَّى الهدى و يدعو الرجاءُ

فإذا الكون فرحـة تغمر الخلقِ إلـــيـــهـــا تـــبـــتـــل الأتـقـيـاءُ

وإذا الأرض في سلام و أمن وإذا الفـجـر نـشـوة و صـفـــاءُ

و كأني أرى الملائكة الأبـرارَ فـــيـــهـا و حـولـــهـا الأنـبـيـاءُ ..

و يذكر شـــاعر آخر في هذه الليلة المباركة - رحمةَ الله المهداة - محمداً صـــلى الله عليه و ســـلم - إلى الخلق أجمعين ‘ هذا الحبيب الأعظم ‘ الذي هدى الله به العالم ‘ و أخرج به الناس من الظلمات إلى النور ‘ بفضل الله و هدايته و توفيقه ‘ هذا الحبيب الذي جرى حبه في شرايين المؤمنين ‘ إنه رسول الله ‘ حبيب رب العالمين ‘ و سيد الخلق طراً أجمعين ‘ الذي أثنى عليه ربُّه و مدح خُلقه ‘ فقال سبحانه : " و إنك لعلى خلق عظيم " ‘ فيدعو الشـــاعر ربَّه أن يهبه في هذه الليلة المباركة شـــفاعة عبده و مصطفاه سيّدِنا محمدٍ صلى الله عليه وسلم :

في هذه الليلة الغراء يشجيني ذِكْرُ الحبيب الذي قد جاء بالدين
عَنيْتُ أحمدَ خيرَ الخلق قاطبةً فحبُّه في فؤادي في شراييني
محمداً سيدَ الأكوان قاطبةً مَن مدْحُه في كتاب الله في (نون)
هوالشفيع الذي تُرجى شفاعته يوم الحساب و يوم الحشر و الدين
صلى عليه إلهي ما هَمَى مطر ما أزهر الورد في روض البساتين

و يعني الشـاعر في قوله في كتاب الله (في نونِ): ان الله سـبحانه مدح نبيَّهُ محمداً صـلى الله عليه و سـلم ‘ في سـورة (القلم) ‘ و هو قوله تعالى : " ن و القلم و ما يســـطرون * ما أنت بنعمةِ ربك بمجنون * وإنَّ لك لأجراً غيرَ ممنون * وإنك لَعَلَى خُلُقٍ عظيم " سورة القلم:١-٤.

فهذه ليلةٌ مباركة طيبة شـريفة ‘ مخصـوصـة بفضـائل لا تُحصـى ‘ فلْنبتهل إلى الله بالدعاء و القيام ‘ يقول الشاعر محمد عبد الغني حسن :

و هذه ليلةٌ في العمر واحدةٌ لها إلى الفجر تكبير و تهليلُ
يا ليلة القدر كم بُورِكتِ من شرفٍ و فيكِ بُورِكَ تسبيحٌ و ترتيلُ
تَنَزَّلتْ فيك آي الوحيِ مشرقةٌ و فصِّلتْ فيك ألواحٌ و تنزيلُ
يا ليلةً خصَّها بالفضل خالقها لها على الدهر تكريم و تفضيلُ
كأنها من جبين الدهر غُرَّتُه أو أنها فوق هام الدهر إكليلُ
يا ربِّ حَقِّقْ رجاء المسلمين بها و اجعلْ دعائيَ فيها و هو مقبولُ

...

و ليلة القدر عروس الليالي ‘ في شـــهرٍ يزدهي فخراً بها ‘ و لِمَ لا و قد نزل الوحي العظيم، و القرآن الكريم في هذه الليلة المباركة ‘ التي تعدِلُ ألف شـهر ‘ بل هي خيرٌ من ألف شـهر ‘ فيا فوز من حَظِيَ بقيامها ‘ و ظفِر ببركتها و فاز بفضـلها ‘ فطوبى له فضل الله و عفوه وغفرانه ‘ كما يقول خير الدين وانلي :

شـهرٌ يَتيهُ على الشهور بليلةٍ فيها نزول الوحي بالأحكـامِ
تـلك التي عُدِّت بألف شهوره و بها السلام يفوق كل كلام
الروح ينزل و الملائك حولَه مـستـبـشـريـن بليلة و سلام
طوبى لقائمها و حائز فضلها و الله ذو فـضـلٍ و ذو إنعامِ

و ينتظر المؤمنون شهر رمضان المبارك بشغفٍ ‘ ليحظَوا بشرف هذه الليلة الكريمة الغراء ‘ التي تســـفر عن العفو و الغفران ‘ و بهـا تتنزَّل الرحمـات و البركـات ‘ و السكينة ‘ يقول الوانلي :

أَحُـلِّـيـتَ بـالأنـوار والإيـمـان يا خير شهر خُـصَّ بالقرآنِ
وحظيتَ من بين الشهور بليلةٍ غراءَ فاضتْ بالهدى الريانِ
هي لـيلة الـقدر التي قد أشرقتْ أرجـاؤها بالـعـفـو والغفرانِ
هـبـط السـلام بـها على قُـوَّامها فاستبشروا بسكينة الرحـمـنِ

و يا حُســنَ هذه الليلة الكريمة ‘جليلة القدر ‘ و قد حثَّ النبيُّ صــلى اله عليه و ســلم على اغتنام بركتها بقيامها. و أراد صلى الله عليه وسلم أن يُعَرِّفَ أُمَّته أي ليلةٍ هي ‘ لكن تشاجر رجلان من المسلمين فرُفعتْ ‘ كما في البخاري ‘ عن عبادة بن الصامت رضـي الله عنه قال : خرج النبي صـلى الله عليه وسلم ‘ ليخبرنا بليلة القدر ‘ فتلاحى رجلان من المسـلمين ‘ فقال النبي صـلى الله عليه وسـلم .. " خرجتُ لأخبركم بليلة القدر ‘ فتلاحى رجلان من المسلمين فرُفِعَتْ ‘ و عسى أن يكون خيرٌ لكم ... " إلخ . و أمر صــلى الله عليه وسـلم بتحرّيها في العشـر الأخير من رمضــان ‘ و في ليالي الوتر منها بخاصَّــةٍ ‘ و قد عبَّر الشــاعر الأندلســي ابن الجِنان أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري المرسي الأندلسي( ) عن معنى هذا الحديث الشريف ‘ فقال :

فيـا حُـسـنَـها مـن ليـلةٍ جلَّ قدرها فحضَّ عليها الهاشِمِيُّ وحرَّضا
وقد كان أصفى وِردَهُ كي يُفِيضَهُ ولكـن تلاحى من تلاحى فقيّضا
وقال اطـلبـوها تـسعـدوا بطـلابها فحـرَّك أرباب القلوب وأنْهضا
لعلَّ بقايـا الحـسن وهـي كـريمـةٌ تبـيّـن سراً للأواخـر أُغـمـضـا

فليلة القدر باســقة يانعة يتفيأ المؤمنون ظلالها من حرّ الذنوب وجاحمها، ولا غَرْوَ فهي ليلة الروح والريحان، وتســبيح الملائكة الكرام، قال بدر شـــاكر السيّاب :

يا ليلةً تفْضُلُ الأيامَ والحقبا هيَّجتِ للقلب ذكرى فاغْتدى لَهَبا
يا ليلة القدر يا ظلاً نلُوذ به إنْ مَسَّنا جاحمُ الظلماءِ مُلتهبا
تنزَّل الروحُ رفافاً باجنحة بيضٍ على الكون أرخاهن او سُحبا
وللملائك تسبيحٌ وزغردة تكاد رنَّاتُها ان تُذْهِل الشهبا

أواخر رمضان و رحيله :

و إذا ما انتصف شهر رمضان المبارك ، واستهلتْ العَشْر الأواخر منه أيضا ، راح الشـــعراء يقرعون أجراس الوداع ، منبّهين المتهاونين ، يحثُّونهم على اغتنام ما بقي من هذه الأيام المباركة و لياليها الفضيلة :

إن كان شطْرٌ قد ذهبْ يا قوم فالباقي (ذهبْ)
بل إنه أغلى ففيه أعــزُّ ما ربي وهبْ
القدر و العشْرُ الأخيرَةُ و الجوائز و الرتبْ
و قوافلُ العتقاء في مِسْك الختام المحتسبْ

و الفائز السعيد هو الموفق الذي اغتنم كل ساعة من ساعات رمضان ، وشهِد بركات الله الرحيم الرحمن ، و تجلياته على عباده المؤمنين بالأمن و الأمان ، و الرحمة و السكينة و الغفران ، فمن عاش تلك الليالي المباركة ، فلا يفارقه سناها ، و ضياؤُها و هُداها ، كما يرى الشاعر الأميري الذي يجمع بين حزنه لفراق شهر رمضان ، و تجلّيات ليلة القدر :

شهري مضى يا فوز عبدٍ لم ينمْ عن صومِه و قيامِه
هو قد برَّ نفسه فتصدَّى للتجلّي و اشتدَّ في إقدامه
و الرحيم الرحمن برَّ مُناه فتجتلَّى له بفيض سلامه
أنا حيٌّ بقلبه و ستبقى ليلة القدر في سنا أحلامه

و تمرُّ أيام رمضان سريعةً ، لكنها تُشيع الراحةَ و الاطمئنان ، مع رجاء رضوان الله وفضله ، و لا يستشعر سعادة أيامه و لياليه إلا من كان موفقاً ، صافيَ القلب ، يقول الأميري :

توالتْ دقائقُه مُطمَئِنَّه وفرَّتْ ومرَّتْ كطرق الأسنَّهْ
وكلٌّ وهمَّتُه ، والتَّجَلِّي مُشاعٌ ، و لله فضلٌ و مِنَّـهْ
فمَن كان في قلبه نورُه سما و نما في ليالي المَظَنَّهْ

وداعُ رمضان و توديعُه :

وداعاً أسعد اللحظاتِ ولَّتْ و هذي حكايةُ الشهر الجميلِ
نفيسُ الوقت مثلُ البرقِ خطفاً و شمسُ الحبِّ تُسرِع للأُفُولِ
مضى رمضانُ عذراً مقلتيَّ كأزهار الخريف إلى الذبولِ
فهل نطوي مع العنقاءِ ذِكْراً و ذلك مُنيةُ العبد الذليلِ

فإذا انسلخ الشهر جلُّه ، و بقي بضعة أيام ، وراح يقوض خيامه و يجمع متاعه مُزْمِعا الرحيل ، بادر الشعراء إلى وداعه متحسرين بلهفة و حزن _ و كما استقبلوه ببشرى و فرح و ابتهاج ، قاموا يُودِّعونه بوجد و تأثر و بكاء ، معبرين عن ألم الفراق . يحضُّون المسلمين على اغتنام ما بقيَ من أيامه المباركة ، و لياليه الزاهرة في الإكثار من صنوف الطاعات ، و أعمال البِرّ و الخيرات ، معارضين و مناقضين ما نُسِبَ إلى أبي نواس _ كما مر بنا _ قوله :

(إذا العشرونَ من شعبانَ ولَّتْ) ..... إلخ البيت ، الذي سبق في موضوع التُّهيُّؤ لدخول شهر رمضان.

و قد هبَّ كثيرٌ من الأدباءِ و الشعراءِ ينقضون بيتي النواسي ، و يعارضونهما ، فهذا العلاَّمة ولِيُّ الدين أبو زرعة العراقي( ) ، يُذَكِّر المسلمين الصائمين بأن رمضان قد شارفتْ أيامه على نهايتها ، و على المؤمن مواصلة الصيام و إتباعه بالقيام ، و هجْر النوم، فقد أزفت النهاية، و ليس الحينُ وقتَ النوم :

إذا العشرونَ من رمضانَ ولَّتْ فواصلْ صوم يومكَ بالقيامِ
و لا تأخذْ بحظِّك من منامٍ فقد ضاق الزمان على المنامِ

و يذكر الشـاعر الشـيخ علي بن إبراهيم الإبِيّ اليماني( ) ' بأنَّ أيام العشـر الأواخر من رمضان أوقات طاعة و ذِكْرٍ ' و ابتهالٍ و تلاوةٍ و صيامٍ و قيامٍ و عمرةٍ في هذا الشـــهر المبارك، و طوافٍ بالبيت العتيق ' و أعمال خيرٍ و برٍ في كلِّ ســـاعةٍ من ساعاتِ هذه الأيام المباركة ' و في كل حين منها ' و عدم إضاعة وقتها.

فالإنسان لا يدري متى يحين فراقُه للدنيا :

إذا العشرونَ من رمضانَ ولَّتْ فواصلْ ذِكْرَ ربِّك كلَّ حينِ

و لاْ تغفل عن التطواف وقتاً فأنت من الفراق على يقينِ

و يودِّع الشـاعر (عبد القادر بن علي) ( )بحزن و أسـى هذا الشـهر الفَذَّ ' الذي لا مثيل له ' و قد راح يشُـدُّ رحاله ' و قام مُحِبُّوه الذين سـيفقدون بمسـراه معنى الزمان الجميل ' و راحوا يُودِّعُونَهُ بسلام الله و سلامته :

خليلَيَّ شهرُ الصوم زُمَّتْ مطاياه وسارت وفود العاشقين بمسراه

عليكَ سـلام الله يا شـهر إننا رأينـاك معنى للـزمان افتقدناه

و من ذا الذي يلوم المؤمن التقي إن بكى بحرقةٍ و أســـى ' على فراق هذا الشـــهر المبارك ' بل ينبغي أن يُسعِدَه الجميع بالبكاء حيث يفقِدون في هذا الشـهر جَمْعَ شـمل المسـلمين في المسـاجد ' و هم بين مُصَـلِّ خاشـعٍ ' و تالٍ للقرآن متدبِّر' و لِمَ لا نبكِي على فراق شـــهرٍ عظيم تُزهِرُ أنواره كالأقمار . فلْنأسَ على ما فرّطنا فيه ' و لنغتنمْ ما بقي :

يا لائِـمـي فـي الـبُكَـا زدنـي بـه كَـلَـفـاً و اسمعْ غريبَ أحاديثٍ و أشعارِ

مـا كـان أحسـنـنـا و الـشـملُ مـجـتـمـعٌ منَّا المصلي و منا القانت القاري

و فـي الـتـراويـح للخيـــرات جـامـعـــة فيها المصابـيح تـزهو مثلَ أقمارِ

فابْكواعلى ما مضى في الشهر واغتنموا ما قـد بـقي فهو حقٌ عندَكم جارِ

و تخشـع الروح حرقةً ' و يذوب القلب أسـى و لوعةً على رحيله ' و تفيض العيون لوداعه حسرةً ' حتى المساجد و مآذنها تندب باكيةً لبعده ' فيا أيُّها الشـهر الكريم هل يُكتب لنا لقاؤك عاماً جديداً ' و هل نسعَد بعودتك الحبيبة الأثيرة ' أو قد حُمَّ القضـاءُ؟ و هل من رجعةٍ لك نحياها ' فتُمحى ذنوبنا و تزول همومنا ؟ :

الـروحُ تَـنـدُبُ و الـفـؤاد يـذوب و الدمع من ألم الجوى مسكوبُ

تـلـك المـساجـد و المـآذن تشتكي ألـمَ الـفـراق ' و قـلـبـهـا مـقلوبُ

رمضان هل من عودةٍ و زيارةٍ أو يا أُخَيَّ قد انتهى الترحيبُ ؟

هل رجعةٌ تمحي الذنوب و ينتهي داء الشقاء ، و ينفع التأنيبُ

و يندب شاعر آخر حظه مع إزماع هذا الشهر المبارك على الرحيل ، إذ إنه لم يتزودْ من شهر الغفران بما يؤَهِّله للفوز برضا الديان ، و لم يغنم من لياليه الفضليات المباركات صنوفَ الطاعات ، فيا حسرته .. ، و سلام عليك يا شهر الفضل و الإحسان ، فقد فاز فيك الموفق ، وغَنِم المسدد ، و خسر و ندم من فرَّط ، و أضاع سوانح الغفران :

ترحَّل الشهر و الهفاه وانصرما و اختصَّ بالفوزِ و الجنات من غَنِما

و أصبح الغافل المسكين منكسِراً مثلي فيا ويْحَه من سوء من اجترما

مَن فاتهُ الزرع في وقت البذار فما عساه يحصد إلا الهم و الندما

طوبى لمن كانت التقوى بضاعتَه في شهره ، و بحبل الله معتصما

فسلام الله عليك أيها الشهر المبارك ، سلام عليك يا شهر الخير و البر و الأمن و الأمان :

سلام من الرحمن كلَّ أوانِ على خير شهر قد مضى و زمانِ

سلام على شهر الصيام فإنه أمان من الرحمن أيّ أمانِ

لئن فنيتْ أيامك الغُرُّ بغتةً فما الحزن من قلبي عليك بفانِ

كأنَّا فقدنا الأنس كلاً بفقده فأعيننا نحو السماء روانِ

و يبلغ الحزن و التأثر منتهاه لرحيل هذا الشهر الفضيل المبارك ، و يرجو المؤمنون بقاءه أو التريُّثَ عندهم ، و لكن هيهات :

إني أرى في المقتلتين رحيلا أجزعتَ أم كان المقام طويلا ؟

مهلاً أيا خير الشهور فإننا دوماً نرى صبر الكرام جميلا

فاغفرْ بعفوك يا إلهي ما مضى و افتحْ لنا نحو الجنان سبيلا

فالحسرة على فراق هذا الشهر الفضيل شديدة حرى ، فحريٌّ بنا أن نبكيَ دماً على وداع شهر لا ندري هل نسعد به في العام القابل أو لا ؟ و هل قُبِل عملنا أو لا ؟ يقول عبد العزيز الدُريني( ) :

أيُّ شهرٍ قد تولَّى يا عباد الله عنَّا

حُقَّ أن نبكي عليه بدماء لو عقلنا

كيف لا نبكي لشهر مرَّ بالغفلة منا
ثم لا نعلمُ أنَّا قد قُبلنا أم حُرمْنا
ليت شعري من هو المحروم والمطرود مِنَّا ؟

فترفقْ بنا يا شهرنا المبارك، كما يقول الفقيه المقرئ الأديب أبو سعيد فرج بن قاسم الغرناطي مودعاً هذا الكريم :

أأزمعتَ يا شهر الصيام رحيلا و قاربتَ يا بدرَ التمام أُفُولا
أجدُّكَ قد جدَّتْ بك الآن رحلة رويدَك أمْسكْ للوداع قليلا
نزلتَ فأزْمَعتَ الرحيل كأنما نويتَ رحيلاً إذ نويتَ نزولا
وما ذاك إلا أن أهلكَ قد مضوا تفانوا فأبصرتَ الديارَ طللولا
وقفتَ بها من بعدِهم فِعْلَ نادب لربع خلا يبكي عليه خليلا
ولمَّا انْجلى وجهُ الهدى فيك مسفراً سدلتَ على وجه الضلال سدولا
لقد كنتَ لمَّا واصلوك ببرِّهم حفياً بهم بَرًّا لهم وَوَصُولا
أقاموا لدين الله فيك شعائراً هدتْهم إلى دار السلام سبيلا
دلائلُ تشريفٍ لديك كثيرة كفى بكتاب الله فيك دليلا
لديك أيا شهر الهدى قَصُرَ المدى فكم لك في شأو الفضائل طولا

و يودِّع شاعر آخر هذا الشهر المبارك بدموع غِزار ، و زفرات حِرار كاللهيب تخرج من القلب حرَّى مع الأنفاس :

صومٌ أغار عليه فطرُ كالنجم بزَّ سناه فجرُ
ما أنتَ أوَّل راحلٍ وُدِّعتَ و الزفراتُ جمرُ

و ينشد المبتهلون إلى الله راجين أن يقبل الله صيامهم و قيامهم ، وصالح الأعمال :

يا رفاقي ودِّعوا شهرالصيام بدموعٍ جاريات كالغمام
واسألوا الله قَبُولاً في الختام ودوامَ الخير مع نيْلِ المرام

ويسائل شاعر طيبة الأستاذ محمد ضياء الدين الصابوني بحرقة وألم؛ هذا الشهر المبارك، فتكاد تخنقه العبرات وهو يناجيه قائلاً : لماذا ترحل أيها الشهر المبارك وتتركني نهب الأسى والتحسر لفراقك... ؟ ثم يجأر الصابوني متضرعاً إلى الله أن يجعله من عتقاء هذا الشهر المبارك :

بـالله يـا شـهـر الـصـيـم مـودِّع فمـا لـقـلـبـك مـسـتـهـام مـوجع ؟

أتراه يرجع مثل حلم في الـكـرى أو نـظـرة فـيـه الـحـبـيب مـوَدِّعُ ؟

رمضانُ لا ترحلْ وتترك مهجتي نـهْـبَ الأسـى فـأنـيـنـهـا مـتـقـطِّع

فاجـعـلـنـا يـا ربـاه مـن عـتقائـه يامن يجيب دعا الصريخ و يسمع

و يجأر الشـــعراء مع نهاية رمضـــان و في أيامه الأخيرة إلى الله سـبحانه ؛ أن يغفر الذنوب و يتقبَّل الصـيام و القيام ' و صـالح الأعمال فيه ' فهو شهر الخير و الإحسان ' فحبذا بقاؤه ' و يا ليته لا يفارقنا .. :

رمـضـان شـهـر الـبـرّ وَلَّى وانقضى أسـفـا عـلـيـه جـامـع الأحـبـــابِ

رمضان شهر الخير و التقوى مضى يا شهر عُدْ دوماً على الترحـابِ

رمـضـان شـهـر الـبـرّ صـار مودّعاً و العيد قد وافـى علـى الأبـوابِ

يـارب فـاقْـبـلْ صـومـنـا و صـلاتـنـا و اختم لنا مـن فـضـلك الـوهابِ

و يأســى الشــاعر (اللَّواح) لانصــرام رمضــان قائلاً : وداعا أيها الشــهر الحبيب المبارك ' لقد أَزِف رحيلك و اقترب ' فيا أسفاه ' و أنَّى لنا الصبر على فراقك ' و قد حُمَّ القضـاء بالفراق الأليم ... ' لقد مضتْ أيامك و لياليك سراعاً كلمح البصر ' فمَنْ ذا يلومنا إذا أَسِـــفنا لفراقك و بكينا لوداعك ؟؟ بل حقيق أن نبكي لرحيلك دماً ' و نذوب حسرة و وجداً ' فهل من عودة لنا يا شهر الصوم ' نستدرك بها ما قد فات من تقصيرنا ؟ :

وداعـاً أيُّـهـا الشـهـر الـوداعـا فـقـد أَزِفَ الرحـيلُ وقد تداعى .

أَلِفـنـا نُسْكَكَ المحمـودَ فـيـنـا و فـارقـنـاك مذ صِـرنـا جذاعـا.

و كـيف لـنـا سُلُوُّك بـعـد بَـيْـنٍ و قـد نـسـخ الـفـراق الاجـتماعا.

و قـد كـنـتَ الـحـبـيـبَ لـنـا و كنَّا نـحـاذر مـك أن تنوي الزِماعـا

لـيـالـيـكَ الـحِـسـانُ مـضـيـنَ عنَّا بـأيـام بـنـا مـرت سِـــراعـا

و فـيـك الـلـيـلـة الـمـقـدور فـيـها جـمـيـعُ الامر ضُـرَّاً و انـتـفـاعا

فـلـيـلُ الـقـدرِ تَـعـدِلُ ألـف شـهـر مـوفـقـة لـمـجـتـهـد أطـاعـا

فرُعْياً شهرَنا المحمودَ رُعْيا فراقُك بعد إلفك قد أراعا
مررتَ بنا مرورَ الطيف حيَّا مُحِبِّيه و ما أهنا اجتماعا
و من ذا فيك لائِمُنا إذا ما بكينا بعد فرقتك التياعا ؟
جديرٌ أن نذوب عليك وجداً و نطلق في الوداع عليك باعا
أشهْرَالصوم هل لك من رجوع فندركَ بالرجوع الارتجاعا ؟
لعلَّ الله يسمح بالتلاقي و يمسح بالرضا العمل المضاعا

و يشارك الأندلسِيُّ صاحبَه (اللَّوَّاحَ) الأسى و المرارةَ لرحيل شهر الصوم ' و أفول شمسه و غيابِ قمره ' و قد خبا سناه ' فما أكرمه من شهرٍ !و ما أعزَّه من ضيف كريم ' فبالله إذ يُزمِعُ هذا الشهر العظيم على الرحيل عنا ' و يودِّعنا منصرفاً ' و قد عمَّتْ رحمات الله فيه على المسلمين كافَّةً إلا من أعرض و تولى ' فهل سيتركنا ساخطاً أو راضياً ؟ :

مضى رمضان أو كأنْ به مضى و غاب سناه بعد ما كان أَومَضا
فيا عهدَه ما كان أكرم معهداً و يا عصرَه اعْززْ عليَّ أن انقضى
فيا ليت شعري إذ نوى غربة النوى أبا لسُّخطِ عنا قد تولَّى أم الرِّضا
فلله من شهر كريم تعرَّضتْ مكارمه إلا لمن كان أعرضا
وإن قُضيتْ قبل التَّفرق وقفة فمُقضِيها من ليلة القدر ما مضى

* * *

و يعجب الشاعر صالح بن علي العمري لرحيل شهر الصوم ' مع أنه نبراس للمسلمين و هو خير شهورهم ' فيودِّعه المسلمون ببكاءٍ و حرقةٍ و حسرة ' لأنه شهر الرحمة و النور و الإشراق ' فذهابه يجرُّ على المؤمنين البأس و الأسى :

رمضان مالك تلفظ الأنفاسا أو لم تكن في أفقنا نبراسا
اسمعْ وداعَك في نشيج مُشيّع ولظى فراقك يُلهِب الأنفاسا
قد كنت غيثاً للنفوس فأثمرتْ بِراً وإشفاقاً وكنَّ بياسا
ونسائم الأسحار تذهب بالضنى وتهدهد الوجدان مما قاسا
وبكل سانحة مآثر سنة من نور أحمدَ أشرقتْ نبراسا
للتائبين مدامعٌ رقراقة تحي الفؤاد وتغسل الأرجاسا

كم في مقام الـذل من تنــهيدة تجلو الصدا والران والأكداسا
والنفس ترتشف الضياء فتعتلي وتكاد تسبح في الفضا استأناسا
أَنْبَتَّ بالتقوى شعـابَ قلوبنا وسقيتَ بالآي الكـرام غراســا
وكسوتَ من حلل الفضائل أنْفُسا فسعتْ إلى ربِّ المــلا أجناسا
و رُبا الأخوةِ أينعتْ من مُؤْثرٍ أو مُنفق لله أو مــن واسى
وتجول في رؤياك صحوة أمَّةٍ رفعتْ بأنــوار العقيــدة راسا
وتقلدتْ تاج الحضارة وامتطتْ ظهرَ العــلا المتــمنع المياسا
هذا هو التاريخ يشهد فافتحوا سِفْرَ الحقيقة واقرؤوا الكرَّاسا
وتمسكوا هدي الرسالة وادحروا دعوى الدَّعي واخرسوا الأرجاسا
ذودوا عن الهادي وأحْيُوا أمــة تتجرع الويلاتِ كأساً كاسا
فمعارك الأفكار أضْرى شوكـة فقفوا على ثغر الحجا حُرَّاسا
سبحان من أسداك جلبابَ الهدى وكفاك زاداً بالتقى ولباسا
واهاً لقلبي في غروبكَ بــعد أن أَلِفَ الطريقَ و رافقَ الأكياسا
لطفاً رويدك بالقلوب فقد سَمَتْ واستأنســت بجــلالك استأناسا
أتغيب عن مهج تجلك بعد مــا أحيــا بك الله الكــريم أناسا
فلكــل نفــس في وداعــك آهةٌ والعينُ تدمع و الحشاشةُ تاسا
نفحاتك الغنَّـاء رِفْــدُ سعــادة تستنزل الرحمــاتِ و الإناسا
يا شهر كم لي فيك من إشراقة تطوي الظــلامَ وتَنشُر الأعراسا
ومضى هلال الصائمين فحشرجَتْ ووقفتُ أجترعُ الأسى والباسا
أَستودعُ الله الكــريم مــآثراً تَعِظُ القلوبَ وتطردُ الوسواسا
ولسوف تبــقى ذكرياتُك حيــةً الواعظاتُ و إنْ بَدَوْنَ خِراسا

و ثمَّة شاعر يعارض في وداع رمضان الأعشى في معلقته المشهورة :

ودِّع هريرةَ إنَّ الرَّكبَ مرتحل و هل تطيق وداعا أيها الرجلُ

فكيف تطيق أيها المسلم وداع شهر البِشر الحبيب إلى قلوب المؤمنين ' شهر الفضائل و المكارم و الدعاء و الإجابة و المغفرة شـــهر فيه ليلة خير من الف شـــهر . فهل يكرمنا الله سبحانه بلقائه كَرَّةً أخرى ' أو سيحول دونه الأجل ؟ :

ودِّع حبيبك شهرَ الصومِ شهرَ تُقى وهل تطيق وداعاً أيها الرجلُ ؟

شهرٌ حباه إله العرش مَكْرمة فيرحمُ الله من ضاقتْ به السبلُ

شهرٌ تنزَّلُ أملاك السـماء به من ألفِ شهرٍ وأجرٍ ماله مثلُ

شهرَ الدعاء هل الأقدار تجمعنا أو اللقاء سيأتي قبله الأجلُ ؟

فوداعاً يا حبيب قلوب المؤمنين' و يا شـــهر العبادة و القنوت ' و القيام و نفحات السحر ' وداعاً يا شهر ليالي الأنوار ' فليلك مشرق و نهارك أَغَرُّ مزهر :

وداعاً وداعاً حبيبَ البَشَرْ حبيب القلوب عظيم الأثرْ

وداعاً حليفَ الدُّعا و القنوت وشهر القيام ونفح السحرْ

لياليكَ بالنور قد أشرقتْ نهارك يزهو بوجه أغرْ

فهل نلتقي يا حليفَ الفلاح وهل عودةٌ أو سياتي القدرْ

وهل رجعة لليالي المِلاح فنقرأ في مُنْتداك السورْ

و بتأثرٍ شديد و حزن عميق ' يودِّع الشاعر عبد الرحمن بن شميلة الأهدل هذا الشهر المبارك بأسىً و حرقةٍ ' و حزنٍ لفراق شهر الصوم الفضيل ' بقلوب باكية و عيون مستعبرة ' فقد سالتْ دموعه و نحُل جسمه لتأهُّب سيد الشهور رمضان الخير و البر و الضـياء و الجلال و الإشـراق ' على الرحيل ' فهنيئا لمن وفقه الله فقام ليله ' و لم يجرح صـــومه ' فنال مِنَح الإله العظيمة و رحمته ' و حظيَ بالقَبول ' و فاز بالعتق من النار .... :

رمضانُ دمعي للفراق يسيلُ والقلب من ألم الوداع هزيـلُ

رمضان إنك فاضل و مُكرَّم و ضياءُ وجهِكَ يا عزيز جليلُ

رمضان جئتَ و ليلنا متصدِّع أما النهـار بلهوه مشغـــولُ

فالتفَّ حولك سادةٌ ذوو همَّةٍ لم يثنِهم عن صومهم مخـذولُ

سجدوا لبارئهم بجبهة مُخْلِصٍ وأصاب كلاً زفـرةٌ وعويلُ
قاموا الياليَ و الدموع غزيرةٌ ويدُ السخاء يزيـنها التنويلُ
كم فيك من مِنَح الإله و فضله والعتق فيك لمن هفا مأمولُ
وسحائب الرحمات في فلك الدُّجَا في ليلةٍ نادى بها التنـــزيلُ
وملائك الرحمن تحييِ ليلَها فيهم أمينُ الوحيِ جـبرائيلُ
تلك المساجد و الدعاء مجلجلٌ لله جلَّ جلالُه التبـــجيلُ

و تسـيلُ دموع شـاعرٍ آخر لرحيل هذا الشـهر الكريم ' الذي يجمع المسـلمين على طاعة ربهم ' صـــياماً و قياماً ' فيغنمون المِنَح الإلهية العظيمة ' من عفوٍ و غفرانٍ و رحمات بفضـــل الله و إحســـانه ' في هذا الموســـم الذي تَحُفُّ فيه ملائكة الرحمن عباده المؤمنين ' وهم في مساجدهم العامرة ' الفيَّاضةِ بالدعاء و الابتهال :

بكتِ القلوبُ على فراقك حُرقةً كيف العيونُ إذا رحلتَ ستفـعلُ
ما بال شهر الصوم يمضي مسرعاً وشهورُ باقي العام كم تتـمـهَّلُ
ها أنت تمضي يا حبيبُ وعمرُنا يمضي ومن يدري أ أنت ستُقبِلُ
فعساك ربـي قد قبِلتَ صيامَنا وعساك كلَّ قيـــامِنا تتقـبَّلُ
يا ليلةَ القدرِ المعظَّم أجـرُها هل اسمُنا في الفـائزين مسـجَّلُ
رمضانُ لا تمضِ و فينا غافلٌ ما دام يرجو اللهَ أو يتـذللُ
رمضانُ لا أدري أعمري ينقضي في قابلِ الأيام أم نتقـابلُ ؟

و يرجو الشـيخ مصـطفى عباس شـهر رمضـان المبارك ' الذي جُمِعَ الخيرُ كلُّهُ فيه ' أن يتريَّثَ قليلاً ' فلم نروِ ظمأ عامنا بعدُ ' فلماذا ترحلُ سـريعاً يا شـهرَنا الحبيب ' فتتركنا و تمضِي ' بل تمهَّلْ فلم يحِنِ الفِراقُ بعدُ :

تمهَّلْ لم يحِنْ بعدُ الفِراقُ تمهَّلْ لم يزلْ فينا اشتياقُ
نُلَوّحُ للوداعِ يداً و أخرى تُكفكِفُ أدمُعاً حرَّى تُراقُ
فما لك دائماً تمضي سريعاً أما بالأمسِ قد طاب العِناقُ
أتتركُنا و تمضي يا حبيباً بأضلُعِنا له شُدَّ الـوثاقُ
تمهَّلْ فيكَ كلُّ الخيرِ ينمو ومن نارٍ لمن صاموا انعتاقُ

و تهمي عبرات الشاعر محمد سعيد راشد الخليلي ( )' لدى فراق رمضان ' وهو يودعه بما هو جدير بأكرم وداع إذ لا سلوان عنه ' و لا عوض عن فقده ' فهو المفضَّل و المكرَّم و المعظَّم و هو سيد الشهور و الأزمان :

خير الوداع لشهرنا رمضانِ هل بعد بينك كان من سلوانِ

خير الوداع عليك ياشهر الهدى لم يتبق من ذنب ولا عصيان

فعلى فِراقك سال دمع عيوننا فوق الخدود كهاطلٍ هتَّانِ

فهو المفضَّل والمعظَّم قدره خير الشهور و سيد الأزمان

* * *

و يُشَّيع هذا الشهر الكريم بالتحية و السلام ' و يستودع المسلمون ربهم هذا الشهر المبارك بقلوب واجفةٍ ' و دموع وأكفة ' و لئن مضى هذا الشهر الكريم و انقضتْ أيامه و لياليه إنَّ الحزن على فِراقه دائم مقيم :

سلامٌ من الرحمن كلَّ أوانِ على خير شهر قد مضى وزمانِ

سلام على شهر الصيام فإنه أمانٌ من الرحمن أيَّ أمانِ

لئن فنيتْ أيامه الغُرُّ بغتة فما الحزنُ في قلبي عليه بفانِ

فرمضان يودع ، والعمر ينقضي، والسعيد الذي يغنم أيامه ولياليه، فلا يضيعها سدى، يقول الأستاذ الأميري:

ذهبتْ رؤاه و نون ختامه فانبرى للحديث عن أيامه

قالوا شهري مضى يافوز عبد لم ينم عن صومه وقيامه

و قد جمع ابن المعتز في بيتٍ واحد بين التهنئة بالعيد و الفرحة بقدوه ' و رحيل رمضان الذي خَلَّفَ الحسرة و اللوعةَ برحيله ' فرحيله ثُكلٌ :

لئن أتى العيد من لُقياكَ في فرحٍ لقد مضى الصومُ من مَنآك في ثُكُلِ

الحلوى الرمضانية :

و لعلَّ من الطريف أن ننتقل إلى جانبٍ آخر ‘ استرواحاً للنفس و استجماماً ‘ و ذلك بتناول الحديث عن بعض الأطعمة و الحلوى الرمضانية بخاصة .

لقد أباح الله لنا الطيبات و أحلَّها ‘و أمرنا بالأخذ منها ‘ و لكن دون إسرافٍ أو إفراط .. ‘ " و يُحِلُّ لهم الطيبات " و قال سبحانه : " كلوا و اشربوا و لا تسرفوا إنَّه لا يحبُّ المسرفين " ‘ و قال تعالى : " قل من حرَّم زينة الله التي أخرج لعباده و الطيبات من الرزق " ... ‘ و لكن كل ذلك بقصد و اعتدال ...

ولا نعرِضُ لتاريخ هذه الأكلات والأطعمة والحلوى وبداياتها ‘ ففي ذلك أقوال عديدة ‘ فقد ذكر بعضهم أنَّ (الكنافة) عُرفتْ منذ أوائل الخلافة الأموية ‘ والله أعلم.

وذكر الإمام السيوطي رحمه الله في رسالته اللطيفة عن (الكنافة والقطايف) قوله : " قال الجوهريُّ في الصِّحاح : القطيفة دثارٌ مخملٌ ‘ والجمع قطايف وقُطُف ... ‘ والقطايف المأكولة لا تعرفها العرب ‘ وحُمل عليها محمل القطايف الملبوسة .

أما الكنافة فلم يذكرها أحد من الأئمة ‘ و لا في الألفاظ اللغوية ما يصلُحُ أن يكونَ مادَّةً لها ‘ و الذي يظهر لي : أنها لفظ أعجمي ‘ أو يوناني) انتهى .

وقد اشتهرت في رمضان بعض الأطعمة والأشربة . تناول بعضها الشعراء بأسلوب فَكِهٍ محبَّب .

ومن تلك الأطعمة الرمضانية ؛ ما شاع من تناول بعض الناس للحلوى بأنواعها ‘ وكذا الكنافة والقطايف والمشبك وجميع الحلوى بأنواعها وصنوفها ومسمياتها : (بلورية ‘ بلاط الجَنَّة ‘ سِوَار الست ‘ أصابع زينب ‘ المبرومة ‘ بقلاوة ‘ والكعك والمعروك ‘ والغُريبة وما كان يُعرَفُ بالقاهريَّة ....) و قد ورد بعض أسماء هذه الأصناف في قول الشاعر :

لقد جاد بالبركات فضل زماننا ... بأنواع حلوى نَشرُها يتضَّوعُ
فلا عيبَ فيها غير أنَّ محبَّها ... يبدِّد فيها ماله و يضيّعُ
فكم (ستِّ حُسْنٍ) مَعْ (أصابع زينب) ... بها كلُّ ما تهوى النفوس مُضيَّعُ
وكم كعكةٍ تحكي أساورَ فضةٍ ... وكم عُقَدٍ حُلَّتْ بها البسط أجمعُ
وكم قد حلا في مصر من (قاهرية) ... وكذا (المشبك) وصْلُه ليس يُقطعُ
وقد صِرْتُ في وصف القطايف هائماً ... تراني لأبواب الكنافة أقرعُ

و هذا شـــاعرٌ يُعَلِّلُ زوجته التي طلبتْ منه حلوى (القاهرية) فأجابها : أليســـت القاهرة في مصر :

و لي زوجةٌ إنْ تشتهي (قاهريَّةً) أقول لها ما القاهريَّة في مصرِ

ف (ست الحسن و أصابع زينب و الكعك و أساور الفضة و القاهرية و المشبك و الكنافة و القطايف و المعروك) . إلى أخره ' فهذه كلها من بعض صـــنوف الحلوى الرمضانية . قال الشاعر :

وأشتاق إنْ هبَّتْ نسيمُ قطايف الس حور سُحيراً وهي عاطرة النَّشْر

ونجد بعض الشعراء قد عرضوا للأكلات الخاصة برمضان المبارك (كالسنبوسك) أو الحلوى الخاصة كالكنافة و القطايف اللذيذة و غيرهما .

وفي السمبوسك يقول الدكتور محمد عيد الخطراوي ' فيما يشبه الزجل :

هات لنا صحن القطايف

واملأ لنا السفرة رغايف

قرّب لي (السمبوسك) مني

واجعل التمرات برني

فأنا صمت لأني

محسن بالله ظني

و (البرني) نوع من جيّد أنواع التمر، كما هو معروف.

* * *

و قد جرت عادةُ بعض ســـلاطين بني عثمان ؛ أن يُهْدوا الوُزراء و قادة الجيش و كبار الموظفين ' وكثيراً من العامة ' أن يُهدوهم في شهر رمضان أطباق الحلواء ' و الكنافة والبقلاوة ' وكانوا يُطلِقون على هذه العادة : (موكب البقلاوة)

و قد اشـتهر بذلك بعض الشـعراء ' و بخاصـةٍ في عصـور الدول المتتابعة ' كما نُظِمَتْ عنها بعض الأراجيز ' فمن ذلك أرجوزة نُسِبَتْ إلى شاعر عباسي ' يُدعى : يحي بن أبي منصور :

قطايفٌ قد حُشِيتْ بالجوز والسُكَّر الماذيّ حَشْوَ الـــموزِ

تَسبَحُ في آذِيٍ دهن اللوز سُرِرْتُ بها لما وقعتْ في حَوزي

سرورَ عباس بقرب فوزِ

(يعني : العباس بن الأحنف ‘ الشاعر العباسي الغزلي ‘ الذي اشتهر بحب فوز) .

و للكنافة في رمضـــان حديث يطول ... ‘ فمن ذلك قول الشـــاعر الظريف (أبي حسين الجزَّار) :

سقى الله أكنـاف الكنافة بالقَطـــر وجاد عليها سُكَّراً دائم الـذَرّ

وتبَّاً لأيـــام (المخـــلَّل) إنهـــا (تمرُّ بلا نفع وتُحسبُ من عمري)

أهيم اشتيـاقاً كلما ذُكِر الحِمـــى وليس الحِمى إلا الكنافة بالقطرِ

وأشتاق إن هبَّت نسيم قطايف السُّ حـور سُحَيراً وهي عاطرة النـشرِ

والشـطر الثاني من البيت الثاني مُضَـمَّنٌ من قصـيدة نُسـبتْ لأكثر من شـاعر ‘ و البيت بتمامه :

أليس من الخسران أنَّ لياليا ً تَمُرُّ بلا نفعٍ وتُحسَبُ من عمري

وكذلك قول الشاعر شهاب الدين الهايم ‘ الذي ضمَّن شطر بيتٍ لذي الرمة ‘ في قوله :

إليكِ اشتياقي يا كنافةُ زائدٌ و مالي غنى عنك كلا ولا صبْرُ

فلا زلتِ أكلي كلَّ يوم وليلةٍ (ولا زال مُنْهلاً بجرعائكِ القَطْرُ)

عليه تعليق [MK2]:

والشـطر الثاني من البيت الثاني (ولا زال منْهلاً بجرعائِك القطرُ) شـاهد نحوي ‘ على جواز تقدم خبر كان أو إحدى أخواتها على اسـمها ‘ و التقدير : لا زال القطر مُنْهلاً . و هذا الشاهد النحوي من قصيدةٍ لذي الرُّمة ‘ و البيت بتمامه :

ألا يا اسْلَمي يا دار ميَّ على البِلى ولا زال مُنْهلاً بجرعائك القطرُ

والقطرُ عند ذي الرُّمة ‘ يعني : الغيث والمطر المنسـكب ‘ والجرعاء : الرابية الرملية ‘ وأراد الدِّيار ‘ ديار مَيَّ .

وأما القطرُ عند شـهاب الدين بن الهايم : فهو يعني : الماء المُحَلَّى بالسـكر المذاب فيه ‘ أو (الشيرة) الذي يراق على الكنافة .

و ضمَّن شاعرٌ آخر شطر بيتٍ من شعر أبي نواس في خمرياته ‘ فقال :

أقول وقد جاء الغلام بصحفةٍ عُقيبَ طعام الفِطْر يا غاية المُنى

بِعيْشِكَ قُلْ لي جاء صحنُ قطايفٍ و بُحْ باسمِ من أهوى ودعني من الكُنى

فالشطر الثاني صدر بيتٍ من قصيدةٍ لأبي نواس .

و يستهدي الشعراءُ الأحبابَ و الأصدقاءَ بعضهم بعضاً من حلوى رمضان و يعبّرون عن ذلك بصور طريفة ، يوظفون فيها بعض المصطلحات الحديثية ، و الوقائع الطبيعية العلمية ، و المحسناتِ البديعيةَ فهذا برهان الدين القيراطي يرسل إلى صديقه القاضي نور الدين ابن حجر رسالة من بابة الدعابة و المباسطة ، و هو ما يعرفه النقاد بفن الإخوانيات ، يقول فيها :

مولايَ نورَ الدين ضيفُكَ لم يزلْ يروي مَكَارِمَكَ الصحيحةَ عن عطا

صدقتْ قطايفُك الكبارُ حلاوةً بفمي و ليس بِمُنْكَر صِدْقُ القطا

و قوله : (و ليس بمستنكر صدق القطا) ، يريد ب (القطا) : القطايف أيضا ، فاكتفى بمقطع الكلمة الأول ، لوضوح معناه ، و ليقيم التورية مع التشبيه الضمني ، فالقطا و هي من الطيور الشديدة الذكاء و الملاحظة ، مع قوَّة الذاكرة و الاستهداء ، فلا تخطيء طريقها ، فكما لا تضلُّ القطا طريقها فكذلك (قطايفك) الكبار الحلوة الرائعة ، طيّبة المذاق ، لم تضلَّ طريقها إليَّ .

و بالغ بعض الشعراء في أَهمية الكنافة في رمضان ، و تفضيلها على القطايف ، و مكانتها عنده عظيمة عالية ، لكنَّها غارت من القطايف ، و لم تدرِ أن الشاعرَ أبا الحسين الجزار ، يحب رمضان ، و ينتظر مجيئَه لأجلها :

إلامَ أرى وجهَ الكنافة مُغضباً ولولا رضاها لم أُرِدْ رمضانها

عجبتُ لها في هجرها كيف أظهرتْ عليَّ جَفاءً صَدَّ عني جِفانُها

تُرى إِتَّهمتني بالقطايف فاغْتَدَتْ تَصُد اعتقاداً أن قلبيَ خانها

ألا خبّروها أنني و حياتِها ومن صانها في كلِّ دارٍ وزانها

ليقبُح أني أجعلُ (الحَشْوَ) مذهبي فأفسد شأني حين أُصلحُ شأنها

ومُذ قاطعتْني ما سمعتُ كلامَها لأن لساني لم يخالطْ لسانَها

وقوله: ليقبح أني أجعل الحَشْوَ مذهبي، ففي هذه التورية يريد القطايف المحشوة باللبأ أو الجوز واللوز والفستق وهذا هو المعنى البعيد المراد، لا ما أطلق عليه بعضهم : مذهب الحشو الكلامي.

ولا شك أنَّ هذا من مبالغات الشعراء و طرائفهم و نوادرهم و دعاباتهم .

وأرسل أبو الحسين الجزار و قد ضاقت به السُّبُلْ إلى صديقه شرف الدين ' حين أُوصِدت في وجهه أبواب الكنافة و قطرها ' يقول :

أيا شرَف الدين الذي فيضُ جودِه براحته قد أَخْجل الغيثَ و البحرَا

لئنْ أمحلتْ أرض الكنافة إنني لأرجو لها من سُحْب راحتك القطرا

فعجِّل به جوداً فما ليَ حاجةٌ سواها نباتاً يُثمر الحمدا و الشُّكرا

ففي البيت الثاني : (لئن أمحلتْ أرض الكنافة ...إلخ) فالمعنى المتبادر إلى الذهن أن القطر هو المطر، بقرينة لفظ (أمحلت ، ولكنه يريد القطر الذي تُحلَّى به الكنافة ، وهذا هو المعنى المراد.

و قال جمال الدين ابن نباتة و هو في مصر، و قد أُهدِي إليه طبقُ كنافةٍ ' فتذكَّر بهذا الصحن ابنته أسماء التي تعيش بعيدةً عنه :

ذكرتُكِ والأسماءُ تُذكر بالكُنى فلله _ يا أسماء _ الكنافةُ والذكرُ

يذكِّر صحنُ الوجه صحنَ كنافة هما الحلو مما تشهد العين والفكرُ

ولم أنسَ ليلات الكنافة قطرَها هو الحلو إلا أنه السُّحُب الغُزْرُ

يجود على ضعفي فأهتزُّ فرحةً كما انتفض العصفور بلَّله القطرُ

و قد ضمَّن ابن نباتة الشطر الثاني من البيت الأخير: (كما انتفض العصفور بلَّله القطر) ' من قصيدة أبي صخر الهذلي من بيته الرائع ' و هو قوله :

و إني لتَعْروني لِذِكْراكِ هِزَّةٌ كما انتفضَ العصفور بلَّله القطر

و كذلك ضمَّن الصفديُّ شطْر أبي صخر الهذلي 'ذا الصورة الجميلة الرائعة في بعض شعره ' في هذا الموضوع ' إذْ قال :

رعى اللهُ نُعماكَ التي من أقلِّها " قطايف " من قطر النبات لها قطر

أمدُّ لها كفِّي فأهتَزُّ فرحةً كما انتفض العصفور بلَّله القطر

فالشطر الثاني مضمَّن من قول أبي صخر الهذلي ' من قصيدته الرائية المشهورة ' التي منها :

و إني لتعروني لذكراكِ هِزَّةٌ كما انتفض العصفور بلَّله القطر

و شبه الشاعر الحسين بن موسى الترسي ؛ القطايف المحشوَّة بلطائف الجوز و اللوز ‘ و قد صُفَّتْ و نُضِّدَتْ بإتقانٍ بعضها فوق بعض ‘ و قد تناولها القوم ‘ شبهها بعرائسَ تطوف بهن وصائفهن :

وقطائفٌ محشوَّةٌ بلطائف طافتْ بنا أَكرِمْ بها من طائفِ

شبَّهْتُها نُضَدتْ على أطباقها بوصايفٍ قامتْ بجنبِ وصائفِ

و يُشبِّهُ ابن نباتة القطايف المنضَّدة بعضَها فوق بعض ‘ بالقَباطِيِّ (جمع قبطيَّة) ‘ و هي من أنفس أنواع الثياب ‘ المنسوجة من الكتان المصري ‘ لكنَّ هذه القطايف قد غُذِّيت بأفضل أنواع الغذاء ‘ وحُشِيت باللبأ أو القشطة أو اللوز والجوز ‘ والفستق ‘ ثمَّ أُنْضِجَتْ حتى غدا لونها أحمرَ ‘ كأنها صُبِغَتْ بالجريال وهو حُمرة الذهب :

ومطويَّةٍ طيَّ القباطيِّ غُذِّيت ألذُّ غذاء ثم عُلَّتْ بجِريال

وأُختٌ لها من جنسها هَائمٌ بها جميع الورى لكنْ لها واحدٌ قالِ

و قد أحبَّها الجميع و عشقوها . و عبارة لكن لها واحد قالِ مما يدخل في التورية ‘ فهي تبدو للوهلة الأولى أن الجميع قد أحبها إلا واحداً قد قلاها (أيْ : أبغضها) فهو قالٍ لها ‘ فهذا هو المعنى القريب ‘ و لكن ليس هو المراد بل المراد المعنى البعيد و هو أن هذا الشخص الواحد هو الذي يقليها بالسمن أو الدهن أو الزيت .

و مما قيل في القطايف و قد شُبِّهت مثل البدور ‘ و سُقيَت بالقطر النباتي ‘ففاح عبير الورد منها ‘ فكأنها أقراص الشهد ‘ قال سيف الدين بن قزل الضميري :

و قطايفٍ مثل البدور أتتْ لنا من غير وعْدِ

قد سقِّيَتْ قطر النبات و طُيِّبتْ بالماء وردِ

فحسبتُها لمَّا بدت في صحنها أقراصَ شهدِ

و قد جمع سعد الدين بن عربي بين القطايف و الكنافة فقال:

وقطايفٍ مقرونةٍ بكنافة من فوقهنَّ السُّكَّرُ المذرورُ

هاتيك تُطربني بنظم رائق ويَروقني من هذه المنثورُ

ولا يخفى ما في البيت الثاني من بديع التورية وملاحتها، بين (تطربني بنظم رقائق ، ... والسكر المنثور)، فطبقات البقلاوة الرقيقة المنظومة والمنضدة بعضها فوق بعض ، فإنها تطربه. وهذا هو المعنى البعيد المراد، وليس نظم شعر الزهد والرقائق، كما يتبادر إلى الذهن أول وهلة. وكذلك السكر المنثور الذي يقابل لفظة المنظوم.

ولقد اعتاد بعض الناس تناول هذه الأنواع في شـــهر رمضـــان ‘ حتى غدت الكنافة والقطايف سمةً بارزةً لأطايب حلوى شهر الصيام ‘ قال ابن هبة المصري :

وافى الصيام فوافتنا قطائفه كما تسامتَتِ الكثبانُ من كَثَبِ

أهلا بشهر غدا منه لنا خلف أكل القطايف من شرب ابنة العنبِ

و يشكر جمال الدين ابن نباتة الكنافة ‘ وقد سبقت القطايفَ في حضورها :

شكراً لها كنافة من بعدها قطائف جاء بقطرٍ مُغدَق

يا جود مُهديها إذا قلنا انتهى ركبت فيها طبق عن طبق

وتنسب لأبي هلال العسكري (الأديب المؤلف المشهور) أبيات في القطايف منها :

كثيفة الحَشْوِ و لكنــها رقيقة الجــلد هوائية

رُشَّت بماء الورد أعطافُها منشورة الطي ومطوية

جاءت من السُّكَّرِ فضِيَّةً وهي من الأدهان تِبرِيَّة

وتفنن شعراء القطايف و الكنافة الرمضانية في استعمال أنواع البديع .

و بعثَ الصفدي إلى قاضي القضاة ‘ يستهديه حلوى رمضان و قطرَها :

لِجود قاضي القضاة أشكو عجزي عن الحُلْوِ في صيامي

والقطرَ أرجو ولا عجيبٌ فالقطرُ يُرجى من الغمــامِ

ففي هذا من صنوف البديع كالتورية و غيرها، وكذا التشبيه الضمني.

و لأبي حسين الجزَّار شعرٌ كثير في الكنافة ‘ و مكانتها في نفسه . و أما القطايف المحشوَّة باللبأ و الجوز و الفستق فلله دَرُّها :

لله درُّ قطايفٍ محشوَّةٍ من فُستُقٍ دعَتِ النواظرَ واليدا

شبَّهتُها لما بدتْ في صحنِها بحِقاقِ عاجٍ قد حُشِين زبرجدا

و جمع أبو الحسين الجزار بين الكنافة والقطايف في قوله :

تالله ما لَثْمُ المراشف كلا ولا ضَمُّ المعاطف

بألذَّ وقعاً في حشا ي من الكنافة والقطايف

و عقد ابن عنين مناظرة بين الكنافة و القطايف ' ثم انتصـــر أخيراً للكنافة ' و فضَّـلها على القطايف ' لأنَّ حلاوة الكنافة ظاهرة و محاسـنها واضـحة منشـورة ' و لكنَّ حشْوَ القطايف مَخْبُوٌّ مصونٌ بالطَّيِّ :

غدت الكنافة بالقطايف تسخر وتقول : إني بالفضيلة أجدرُ

طُويتْ محاسنها لنشرمحاسني كم بين ما يُطْوى وآخر ينشرُ

وحلاوتي تبدو و تلك خفيَّة وكذا الحلاوة في البوادي أشهرُ

و هكذا وقفنا على أنماط مما ذكره الشـعراء ' من أطايب حلوى رمضـان المبارك ' التي اعتاد الناس تناولها بعد صلاة التراويح في شهور الشتاء بخاصة .....

* * *

جانب قاتم لدى بعض الشعراء :

لكنَّ تلك الجِواء الجميلة المفعمة بالخير ' والعبقة بطيوب الإيمان ' والمشـــرقة بالروح الســـامية ' لم تَخْلُ من مكدرات الجاهلين ' و عبث الفاســـقين ' فبدا الجانب القبيح لدى بعضِ الشعراء .

وقد ظهر هذا الشطط و السفه عند بعضهم 'منذ بدأ التهيؤ لشهر الصوم في شعبان ' كما مرَّ معنا سابقاً إذ يُنسب لأبي نواس قوله :

إذا العشرونَ من شعبانَ ولَّتْ فواصلْ شرب ليلك بالنهار

و لا تشربْ بأقداحٍ صغارٍ فقد ضاق الزمان على الصغار

فهذا المســكين المحروم بدل أن يغتنم إقبال شـــهر رمضـــان ' فيعود إلى الله بالتوبة النصوح ' نراه يُصرِّح بالعَبِّ من المحرمات و المنكرات ' و يستعلن بها .

و إذا كانت شياطين الجن قد صُفِّدت في هذا الشـهر المبارك ' فإن المُجَّان من بعض الشـعراء أو شـياطين شـعرهم ' بقيتْ منفلتة منطلقة ' تسـرح و تمرح ' بل قد سُـجِّل على بعض الشعراء مواقف سيِّئَةٌ من رمضـان .. ' فهذا الشهر المبارك الذي ينتظره المســلمون ' و يســتقبلونه بفرح و ســرور و حبور .. ' حتى إنَّ بعضـــاً من غير المسـلمين قد تجمَّلوا مع المسـلمين و جاملوهم ' و شـاركوهم الفرحة و البهجة بقدوم رمضان.

و بعضـــهم من كان يمتنع عن الطعام و الشـــراب ‘ في نهار رمضـــان ‘ بحضـــرة المسلمين ‘ و بعضـهم من كان يبسِط موائد الإفطار مجاملةً لجيرانه المسلمين ‘ فإنَّنَا مع كلّ هذا قد وقفنا في أشعار بعض المسلمين على التذَمُّرِ من هذا الشهر ‘ و وصفه بأنه ممل طويل :

نُبِّئت أنَّ فتاةً كنتُ أخطبها عرقُوبُها مثلُ شهر الصوم في الطول

و الشـــعراء في هذا مؤاخذون بأقوالهم _ و لا ريب _ و إن كانت بســـبيل التنذُّرَ و الدُّعابة.

و قد قال الله تعالى : " قل أبالله و آياته و رسوله كنتم تستهزئون لا تعتذروا .... "

وقد رُوِيَ عن النبي صـلى الله عليه و سـلم قوله : (إنَّ الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأســاً ليُضـــحِكَ بها القومَ ‘ و إنَّه ليقع بها أبعد من الســـماء) . و في رواية: " إنَّ الرجل ليتكلم بـالكلمـة لا يرى بهـا بـأســـاً ‘ يهوي بهـا ســـبعين خريفـاً . " رواه (الترمزي و ابن ماجه) . و في حديث معاذ بن جبل رضـــي الله عنه : " ... فقلتُ يا نبيَّ الله ؛ و إنَّا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ قال : " ثكلتك أمُّك يا معاذ ؛ و هل يكبُّ الناس في النار على وجوههم ‘ أو قال على مناخرهم ‘ إلا حصائد ألسنتهم . "

فعلى غرار ذاك . ذكر شـــاعر بعض الولاة ‘ بما فيه تعريضٌ بشـــهر رمضـــان المبارك ‘ على طريقة ما يسميه البلاغيون : (الذم بما يشبه المدح) يقول :

أيامُه مثلُ شهرِ الصوم طيّبةٌ لكن فيها الجوع و العطش

و نجد كثيراً من أمثال هذا التعرُّض لرمضـان ‘ و التعريض به تلميحاً و تصـريحاً . من بعض الفسَّاق و إن كان بسبيل الدُّعابة و التَّنذُّر ‘ _ أو كان استهتاراً _ كما قلنا . و إذ أورد بعضهم ما نُسب للأخطل من القول :

و لستُ بصائمٍ رمضان طوعاً و لست بآكلٍ لحم الأضاحـي

و لستُ بقائمٍ يومـــاً لأدعو لدى الإصباح : حيَّ على الفلاح

فهذا شـاعر نصـراني غير مسـلم أصـلاً ‘ مع أن القصـة حول هذين البيتين ملفقة مصـنوعة، وقد طعن الباحثون في صـحتها سـنداً ومتناً ولم ترد في مصـدر معتمد، وإنما تناقلتها بعض الكتب الأدبية، كالأغاني والعقد الفريد والمسـتطرف وأشـباهها وقد وردت القصـة مع الأبيات فيها جميعاً وردت بصـيغة التمريض، من مثل قولهم: ورُوي أن : ...، وقيل : إن ...، وذكروا : أن ...، فلا يُتصور عقلاً أن يقول الأخطل هذه الأبيات، والدولـة الإسـلامية في أوج قوتها وعظمتها وعزتها، ثم تقال تلك الأبيات لأعظم خليفة في ذلك العصر .

والأخطل شـاعر نصـراني ، فما عذر هؤلاء و هم مسـلمون ؟ ‘وعقوبة الله قد تكون معجلةً ‘ كما وقع لشـاعر مشـؤوم بئيس ‘ يُسمَّى : أبا عيسـى بن رشـيد ‘ حين صـرَّح بفسقه _ و إن كان مازحاً : أنَّه لن يصوم رمضان آخر ‘ فقال :

دهانيَ شهرالصوم لا كان من شهر و لا صمتُ شهراً بعده آخرَ الدهر

و لو كان يُعديني الإمام بقدرةٍ على الشهر لا ستعديتُ جهدي على الشهر

فقصمه الله و أخذَه أَخْذَ عزيز مقتدر ‘ و لم يمهله إلى رمضـان آخر ‘ و حاق به شؤْم دعوته ‘ و عُجِل له .

و هذا شاعرٌ هلَّ عليه هِلالُ رمضان ‘ فتهيَّأت زوجته للصيام ‘ و طلبت من زوجها أن يتهيَّأ أيضاً لصيام هذا الشهر الفضيل ‘ فأجابها زوجها المحروم : أما يكفي أنه سيمكث في القبر زمناً طويلاً ‘ دون طعامٍ أو شراب :

أتأمرني بالصوم لا دَرَّ دَرُّها و في القبر صومٌ يا أميمَ طويلُ

و لا يبالي الصـاحب ابن عبَّاد أن يعلن عُهْرَهُ و يجاهر بفسقه ‘ في هذا الشـهر العظيم فيرسـل إلى بعض الغلمان ليحضـره ‘ فأجابه : أو لسـنا في شـهر الصـيام ؟ لكن الصـاحب ابن عباد لم ينتهِ ‘ و لم يبالِ و لم يُكْرِثهُ غضـبُ الله و مقته ‘ بل أجاب الغلامَ: صُـمْ أنت إن أردت تعففاً و تحرجاً و لكن لا تحرم الناس بالابتعاد عنهم ‘ و تَرْكِ زيارتهم ‘ و لا تؤْذِ الأحبةَ ‘ و تكيدهم بالهجران ‘ فلا حرج في الزيارة :

راسلتُ من أهواهُ أطلبُ زورةً فأجابني : أولستَ في رمضانِ ؟

فأجبته: والقلبُ يخفِقُ صبوةً الصومُ عن برٍّ و عن إحسانِ

أوْ لا فزُرْني و الظلام مُجلِّلٌ واحسِبْهُ يوماً مرَّ مِنْ شعبـانِ

صُمْ إن أردتَ تعفُّفاً وتحرُّجاً عن أن تكيدَ الناسَ في رمضـانِ

و ذكر الدكتور محمد رجب البيومي رحمه الله : أنَّ ابن العميد( ) قد فتح باب هِجاء رمضان على مصراعيه لمن بعده . فله في ثلبِ رمضان و غمزه و لمزه شعر كثير. و قد ترسَّم خُطاه في الإساءة لرمضان _ كما في زهر الآداب _ شعراء كُثُر ، فقد تَبِعَه منهم بديع الزمان الهمذاني ، و القاضي الفاضل أيضاً ، و سواهما ممن قلَّدوه ، فباء بإثمِ أولئك جميعاً .

ولئنْ تجرَّأ شاعر على إعلان فسقه مباهياً به إنَّ هذا من علامات خذلان الله و مقته ، و هذا ما باء بإثمه بعض الشعراء الفسَّاق ، كالصاحب بن عباد و غيره ، من الذين تبجَّحوا بما يغضب الله تعالى ، و إذا كان المسلمون المؤمنون يتبادلون التهاني بإتمام صومهم ، و أملاً بقبول صيامهم و طاعتهم ، و رجاء غفران الله لهم ،

فإن صفي الدين الحِلِّي يفرح بانقضاء شهر الصوم ، ليجاهر بالمعاصي التي أخفاها في شهر رمضان خشية الناس :

دقَّ شوالُ في قفا رمضان وأتى الفِطْر مؤْذناً بالتهاني
فجعلنا داعيَ الصبوح لدينا بدلاً من سحوره والأذانِ
واسترحنا من التراويح واعتضْ نا بِخَفْق (الجُنوك) والعيدانِ
منظر الصوم مع تَوَخِّيه عندي منظر الشيب في عيون الغواني
ما أتاني شعبان من قبل إلا وفؤادي من خوفه شعبان
كيف أستشعرُ السرورَ بشهرٍ زعم الطبيب أنه مرَضانِ
فاسقني القهوة التي قيل فيها : إنها من شرائط الشيطانِ
صحَّ عندي أنها جنَّة الخلد و فيها عينان نضَّاختانِ

ونعوذ بالله ، ثُمَّ نعوذ بالله ، فهو يستبدل بالسحور معازفَ الشيطان ومقارفةَ الذنوب ، و شُرْب الخمور ، التي هي من شرائط الشيطان ، فالخمور والمزامير هي جنتُه و نعيمه ..

وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يجد راحته وحلاوة وقته ، في الوقوف بين ربه سبحانه و مناجاته ، قائلاً : " أرِحْنا بها يا بلال " ، و كذلك كان المؤمنون ، فإنَّ هذا المخذول ، : الحِلِي ،يجد راحته بترك الصلاة ، و عزيف المزامير

و آلات اللهو..، بدلاً من تلاوة القرآن ، إذ يقول :

واسترحنا من التراويح واعتضْ نا بخفق الجُنوك والعيدان ..

(الجُنوك ، جمع : جنك ، و هو : الطنبور ، من آلات اللهو) .

و قد افتتح (الحِلّي) قصيدته السيّئة المشؤومة ‘ بأسوأ تعبير و أبذئِه ... .

* * *

وقبيحٌ _ كما رأينا _ الجهر بالسوء، والمجاهرة بالمعاصي و الذنوب و الآثام ... ‘ و لكن الأقبح منها من يصدُّ الناس عن الخير ‘ و يُزيِّن لهم الفسوق و الشر ‘ كما قال تعالى : "و من أظلم ممن منع مساجد الله أن يُذكَر فيها اسمه و سعى في خرابها .."

و من هذا القبيل يذكر الأستاذ كمال الخطيب ( ) في مقالٍ له بعنوان :

(... و لا تكنْ مثلَ طه حسين) يقول الخطيب : " كم هم مساكين و أشقياء أولئك الذين يُحرمون نعمة صيام رمضان ‘ و حتى إذا صاموا ‘ فإنَّه لا ينالون من صيامهم إلا الجوع و العطش ... !!

بل إنَّ طه حسين الذي فُتِنَ بالغرب و أخلاقه ... ‘ قد وصل به الأمر ليس فقط بالمجاهرة بالإفطار في رمضان و إنَّما وصل به الأمر إلى حد قوله :

لو أنَّ لي في الناس حُكماً نافذاً ألزمتُ بالإفطارِ كُلَّ الناسِ

أي لو كان الحُكم بيدي ‘ لأصدرت القوانين و الأحكام ‘ التي تُلزم الناس جميعاً بالإفطار و عدم الصيام ... " انتهى بحروفه .

فطه حسينٌ لم يكتفِ بفطره فحسب ‘ بل يُصرِح متمنياً ؛ أن لو كان له من الأمر شيء لأوجب الفطر على الناس كافَّةً ‘ و لألزمهم به ...

.....

و لمّا انتهى شهر الصيام جُلُّه ‘ وقارب آخره ، و لم يبْقَ إلا أقلُّه و أوشك على الرحيل ‘ لم يعُدْ (البحتري) يُطيق صبراً عن لذاته ‘ و تمنى أنْ لو كان شهر الصوم ليلاً كلّه لا نهار فيه ‘ يَحولُ بينه و بين ما يشتهي :

قد مضتْ سبعةٌ و عَشْرٌ و عَشْرٌ ما نذوق اللَّذاتِ إلا لِماما

ما على الليل لو أقام علينا أو يرانا من الصيام صياما

و يزعم ابن الرومي أن شهر الصيام طويل مُمِلٌّ بطيء المُضيِّ يقول :

شهر الصيام وإنْ عظَّمْت حرمته شهر طويل ثقيل الظل والحركة

وابن الرومي يصوم رمضان ما لم يوافق شهورَ شدة الحرّ والعطش ‘ مع اليوم الطويل :

شهرُ الصيام مباركٌ ما لم يكنْ في شهر آب

خِفْتُ العذابَ فصُمْتُه فوقعتُ في نفس العذاب

و لابن الرومي شـــعر قبيح في ذمِّ رمضـــان، فهو يزعم أنك إذا باركت لقوم بشـــهر الصـيام ‘ فأنت إنما تدعو عليهم بطول العذاب ‘ و حبَّذا لو كان الصـيام يوماً واحداً ‘ عوضاً عن شهر كامل :

إذا برَّكت في صومٍ لقـــوم دعوت لهم بتطويل العـــــذاب

فليت الشهر كان فيـــه يـوم وأهلا وسهلا بالطعام وبالشراب

و ما التَّبْريكُ في شهرٍ طويلٍ يُطاوِلُ يومُه يومَ الحســـــابِ

فليتَ اللَّيلَ كان فيه شهـــراً و مرَّ نهارُه مرَّ السحـــــابِ

فابن الرومي يزعم أن بركة الشـــهر هي طوله ‘ وامتداد أيامه ‘ ولذا فهو يعجبه انقضاء الشهر ويُسرُّ بنحول هلاله :

شهرُ الصيام مبارك لكنما جُعلتْ لنا بركاته في طوله

إني ليعجبني تمامُ هلاله وأُسرُّ بعد تمامه بنحوله

و من عادة الشعراء ؛ أن يترسم بعضهم خُطا بعض ‘ ولشوقي قصيدة تنسحب على هذا النمط ‘ فربَّما كانت من هذا القبيل ‘ فشـــوقي كثيراً ما يجنح لفنّ المعارضـــات الشـــعرية ‘ ويتناول الأغراض الشـــعرية تقليداً للأقدمين ليبزَّهم ‘ و ليُرِيَهُم مهارته وتفوقه عليهم ‘ وهو يصـــف حال بعض الناس الذين يتعجلون الفطر ‘ ويســـتبطئون انسـلاخ رمضـان ليعاودوا فسـقهم و معاصـيهم ‘ و ليفرحوا بالفطر الذي يمكنهم مما كانوا فيه من الشرب و الموبقات ‘ و لعل قصيدته :

رمضان ولَّى هاتها يا ساقي مشتاقة تسعى إلى مشتاق

فمِنْ هذا القبيل ‘ جاءت القصـــيدةُ في محاكاة بعض معاني أبي نواس ‘ وســـواه من الشعراء القدامى في غرض الخمريات .

و قد برَّأَ كثير من النقاد و الأدباء و الباحثين الشـاعر (شـوقي) ‘ و اعتذروا عنه ‘ و برَّؤوا ساحته ‘ من المجاهرة بالفسوق و الآثام ‘ لأنه يصف كما قالوا حال فئة من الناس .

وقال بعضهم إن (شوقي) لم يُرِد التَّغزل بالخمرة ‘ بل وصف حال بعض معاقريها، الذين ينتظرون انتهاء رمضـان كي يعودوا إلى شـربهم ‘ و ليس هو المباشـر للمنكر وإنَّـه من الذين قال الله فيهم : " وأنهم يقولون ما لا يفعلون " . و رأى بعض النقاد الآخرين أن القصـــيدة وطنية وأخلاقية ‘ وإنْ كان مطلعها الصـــادم يُوهِم لأول وهلة

بخلاف ذلك ، وأنَّ هذا ما هو إلا لفتة فنية من شاعر أراد جذب الانتباه إلى قصيدته ، وقد عارض قصيدة شوقي الأستاذ فتحي الطويري فقال :

رمضان ولَّى فها أنا يا باقي مُتَوجِّهٌ لرضاك بالأشـــواقِ
سأظلُّ أنزِفُ في رحابك أدمعي حتى يُمَنَّ عليَّ بالإعتـــاقِ
و َتهُبُّ ريح العفو من عليائه وتضيء شمس القرب بالإغداقِ
فاغفرْ إلهي باحتسابي ما مضى ومن الذنـــوب مُقدَّمٌ و بـــواقِ
وإذا أخذتَ الروحَ حسبي أنها : (مشتاقةٌ تسعى إلى مشتـــاقِ)

وقد أثارت قصيدة شوقي جدلاً واسعاً ما بين مادح وقادح . و أياً كان الأمر ، فإن الله سائل كل إنسان عن عمله ، و عن حصاد لسانه ، وأمْرُه قبل ذلك وبعده لله سبحانه .

و ردَّ بعضهم على قصيدة شوقي ناقضاً بشدةٍ ، فقال :

رمضان ودَّع و هو في الآماقِ يا ليته قد دام دون فـــــراقِ
(اقرأ) به نزلتْ ففاض سناؤها عطراً على الهضبات و الآفاقِ
لا يا (أمير الشعر) ما ولَّى الذي آثاره في أعمق الأعمـــاقِ
(الله غفار الذنوب جميعـــــها) إن كان ثَمَّ من الذنوب بـــواقِ
الصوم (يا شوقي) إذا لم تَدْرِهِ نورٌ وتقوى و انبعـاثٌ راقِ
رمضان (يا شوقي) ربيع قلوبنا منه يشعُّ أطايب الأعـــراقِ

و نلاحظ أن هذه القصـيدة لم تَرقَ في المسـتوى الفني إلى قصـيدة فتحي الطويري ، بَلْهَ قصيدة شوقي ... ، و لكن أوردناها استكمالاً لجوانب البحث .

* * *

و من العادات غير المحببة لدى بعض الناس في رمضـــان : الإســـراف و التبذير و المباهاة بالموائد الحافلة ، و بخاصـــةٍ في هذه الســـنوات الأخيرة ، و العصـــور المتأخرة ، الحافلة بالعديد من أطايب الأطعمة الفاخرة ، حتى غدا التباهي بألوان المآكل و الأشربة ، عند كثيرٍ من الناس سمةً لازمةً من سمات شهر الصيام ، و إذا كان السلف الصالح رضي الله عنهم ، والآباء والأجداد كانوا يتنافسون في الطاعات في رمضان ، صلاةً و صدقاتٍ و تلاوة القرآن مع الذكر والدعاء ، فقد صرنا نتنافس في إعداد موائد رمضان، بكل غالٍ و نفيس و ما لَذَّ و طاب ، للتباهي و حَشْوِ البطون و قد انتقد بعض الأدباء و الشـــعراء طائفة من الناس ، ينتظرون المغرب بفارغ الصـبر ، فإذا ما سـمعوا أذانه ، هُرِعُوا إلى الطعام و الشـراب بِنَهَمٍ شـديد ، فَحَشَـوْا بطونهم فوق طاقتها ، فلم ينتفعوا بصـــيامهم ، بَلْهَ ما يعانون بعد ذلك من تخمةٍ

وانتفاخات و تجشُّـوءات و مَغْص و آلام ، و ما ذاك إلا للإسـراف في إعداد موائد رمضـــان ، والإكثـار من الأطعمـة المتنوعـة ، و تنـاولـهـا بنـهم ، يقول معروف الرصافي :

وأغْبى العالمين فتى أكولٌ لِفِطْنَتـــه بِبِطْنتِه انـهزامُ

ولوأني اسْتَطَعْتُ صيام دهري لَصُمْتُ فكان ديدنيَ الصيامُ

ولكنْ لا أصوم صيامَ قومٍ تكاثر في فطورهم الطـــعامُ

إذا رمضان جاءهمُ أعدُّوا مطاعم ليس يدركها انهضامُ

إن من بعضِ الحكمةِ من الصـيام بعد طاعة الله ، وامتثال أوامره في تأدية هذا الركن العظيم ، هي أن يشـعر الصـائم بمشـاعر إخوانه المستضـعفين ، و الفقراء و الجياع ، فللجوع إذن عواقبُ خيرٍ ، فلا تكنْ مِبْطاناً :

تجوَّعْ فإن الجوع يُورِث أهلَه عواقبَ خيرٍ نفعُها الدهرَ دائمُ

ولا تكُ ذا بطنٍ رغيب وشهوةٍ فتصبحَ في الدنيا وقلبك هائمُ

و على الصـائم أن يستفيد من صـيامه بالإقلال من الطعام و الشراب ، فيتحقق معنى الحكمة السديدة : " صُوموا تَصُحوا " ، كما يقول الشاعر محمود الكلزي

رمضان هلَّ على العوالم جنةً " صُوموا تَصُحوا " يا بني الإنسان

(الصوم لي وأنا الذي أجزي به) يا صائماً فادخل من الريَّـــان

و الصـــوم الحقُّ ابتعادٌ عن كل ما يجرح الصـــوم ، من حقدٍ و كراهية و غيبةٍ وأكل حقوق الآخرين ، يقول محمود محمد أسد :

فإنَّ الصيامَ صيامُ النفوس عن الموبقاتِ و صَدُّ اشتهاء

و ليس الصيامُ امتناعَ طعام و شرباً و جرياً وراء الثراء

و ليس اختلافاً و حقداً لأمرٍ سخيفٍ ، أجلْ فالصيام ارتقاء

أجل الصـوم ارتقاء ، و ترفُّعٌ عن الشـهوات ، و كما انتقدوا بعض العادات السـيّئة ، فقد انتقدوا المخالفاتِ الشـــرعيةَ التي تقع من بعض الصـــائمين ؛ كاللهو و الغيبة و النميمة في رمضـان ، و إضـاعة الوقت في غير ما فائدة ، يقول أمير الشـعراء أحمد شوقي :

يا مُديمَ الصوم في الشهر الكريمِ صُمْ عن الغيبة يوماً و النميمِ

وصَلِّ صلاةَ من يرجو ويخْشى وقبْلَ الصوم صُمْ عن كل فُحْشا

إذاً لا بدَّ للمؤمن من حفظ صـــومه و صـــونِهِ ‘ و حِياطته عن كلِّ ما يجرحه و يُســـيء إليه ‘ من أثر آفات اللســـان ‘ وإطلاقه في كلِ مُحرَّمٍ ؛ من غيبة و نميمة و بذاءة قولٍ و فُحْشٍ ‘ و كذب و نفاق ‘ وكذلك حفظ السـمع عن المحرمات ‘ وكذلك حفظ البصر ‘ وعدم إطلاقه بما يُخِلُّ بسلامة صومه ‘ يقول القحطاني :

حصِّنْ صيامَكَ بالسكوت عن الخنا أَطْبِقْ على عينيك بالأجفانِ

لا تسعَ بين الصاحبينِ نميمـــةً فلأجلها يتباغض الخلانِ

لا تمْشِ ذا وجهين ما بين الورى شرُّ البريَّة من له وجهانِ

"كلمة أخيرة"

وبعد :

فقد مرَّ بنا القول مفصّلاً أحوال الصيام والصائمين، وعظم شوق المؤمنين لهذا الشـــهر العظيم واحتفائهم به، والتنويه بفضـــله، واغتنام أوقاته المباركة في العبادة والطاعة، والحرص على أيامه ولياليه بالتقرب إلى الله . كما رأينا في الطرف الآخر تهاونَ بعضـــهم واســـتهتارهم بعِظَم حرمة هذا الشـــهر . ووقفنا عند اهتمام بعضـــهم بالمظاهر ، والتفاخر بالأطعمة والأشـــربة ، وإضـــاعة المال والوقت ، للتباهي والازدهاء، وانصـرافهم إلى اللهو، وجعْلِ رمضـان باباً للتوسع في متاع الحياة الدنيا وزينتها وزخرفها، مع أن أســـلافنا لم يكونوا يُعْنَوْنَ بهذه البهارج، بقدر ما كانوا ينصرفون إلى جوهر هذا الشهر العظيم. فلما رُزِئْنا تلك الروح السامية من رمضـان انصـــرفنا إلى مظاهره البراقة، حتى قال بعضـــهم : (لقد دخلتْ الكُنافةُ و القطايفُ تاريخ المســـلمين ‘ حين خرج الصـــوم بمعانيه الحقيقية الســـامية ‘ وضـــعفت روحُ رمضـان في القلوب، و حين صـار الإسلام فانوساً أثريَّاً و مظاهرَ شعبيّة (فلكلورية) و سُبحةً معطَّلةً أو للزينةِ و اللَّهو ‘ و اللعب و التسلية ‘ و مسلسلات تمثيلية لا قيمة لها ‘ تُنافي روحَ شـــهر رمضـــان و روحانيته، مع إضـــاعةِ كثيرٍ من الأوقات فيما لا يَرُدُّ نفعاً و لا فائدة، كما قال الشاعر عبد الواسع اليهاري :

مسلسلُ الخيرِ أَحْرَى أنْ يُتابَع من مسلسلاتٍ تُضِيعُ الشهرَ والعاما

(وتَسْلُبُ المرءَ منه كلَّ نخـــوتهِ وتتركُ المرءَ فيه ناكساً هامـــا

و يُرْزَأُ الغيرةَ تَحْميهِ محـــارِمَهُ مُستسهلاً بعدها عُهْراً وإجراما)

فحري بالمسلم أن يغتنم بركات ها الشهر، ولا يضيعه في ما يترفع عنه الفضلاء، من اللهو والعبث الذي لا يرد على صاحبه خيراً :

لا تجعلنْ رمضانَ شهرَ فكاهةٍ تُلهيك فيه من القبيح فنونُهُ

وأعْلمْ بأنك لن تَنال ثوابَه حتى تكونَ تصومُهُ وتصونُهُ

الخاتمة:

كنا فيما مضى من الصفحات نجُوبُ أرجاء هذا الشهر الفضيل المبارك ‘ و طوَّفنا معاً في جنباته الرحبة ‘ فعِشنا فرحةَ استقباله و بهجةَ قدومه ‘ و اغتنمنا أجمل ساعاته الرائعة ‘ في أيامه المباركة و لياليه الكريمة ‘ و رافقنا (المسحراتي) وهو يقرع بطبلته ‘ منشداً أشعاره العذبة بألحانه الشجية ‘ حتى وصلنا إلى عَشْرِه الأخير المبارك الجميل ‘ و رافقناه في ليلة القدر المباركة الزاهرة ‘ و فضلها في الإسلام و مكانتها لدى المسلمين ‘ الذين يحضُّون على اغتنام قيامها ‘ بالذِّكْر والتهجُّد و تلاوة القرآن الكريم ‘ وصنوف الطاعات و القربات .

ثم اصطحبا الشعراء و هم يودِّعون هذا الشهر المبارك ‘ بعاطفة شجِيَّة و حزنٍ و أسى لفراقه ‘ و قد شنَّفنا الأسماع و ملأنا الآذان بتراتيل المنشدين ‘ وابتهالات المبتهلين ‘ و هم يُنشدون أشجى الألحانِ ‘ و أعذب الكلمات و أرقها و أصدقها في وداع رمضان .

و قد عشنا وقتاً مع أطعمة رمضان و حلواهُ ‘ وما قيل فيها من طرائف و أشعار استجماماً .....

و إذا كنَّا قد عشنا مع شعرائنا تلك الجِواء الروحية المشرقة ‘ العبقة بطيوب الإيمان و الخير و الإحسان ... ‘ فإن جوَّاً قاتماً ندَّ عن بعض الشعراء ‘ كان له أثرٌ سلبي في الشعر الرمضاني ؛ فمنهم مَنْ تَذمَّر منه و من طول يومه ‘ و منهم من غمز جانبه و لمز ‘ و منهم الأشأمُ الذي عزم ألاَّ يصومَ رمضانَ آخر ‘ فقصمه الله تعالى ‘ ومات قبل أن يدرك رمضان التالي ‘ و منهم ... ‘ و منهم ... ‘ إلخ

كما تأثَّرنا أسىً لحال بعض الناس ، الذين لا يستفيدون من شهرهم المبارك هذا ، فيصيبهم الغبن، ويخسرون الأجر بعاداتهم و أفعالهم غير المحببة . فهذا أكثر ما يُشجي و يُحْزن ، فأولئك قد خسروا شهراً انسلخ من أعمارهم ، وأضاعوا سوانحة ورغائبه ، ولا يدرون هل يُعاد عليهم مرة أخرى أو لا .. ؟

ونأسى بحزنٍ و أسفٍ و مرارةٍ ، لحالِ أولئِك الذين أضاعوا سانحة العمر بهذا الشهر العظيم ، وهي ليلة القدر ، فبدَّدوها بما لا يَرُدُّ عليهم نفعاً ، فكانت خسارتهم فادحة

وقد وقفنا على كلِّ ذلك مما سلفَ من خلال قَدْرٍ عظيمٍ من الأبيات الشعرية ، التي قد اجتزأنا ببعضِها عن أكثرها ... ، في كلِّ غرض من أغراض الشعر الرمضاني ، الذي يصلح كُلُّ غرض منه أن يكون بحثاً قائما بنفسه منفرداً بذاته على حدةٍ .

لقد ذكر الأستاذ الكبير ، والأديب المبدع الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله ، ساعة السَّحَر في رمضان ، بأنها من خير ساعات عمر الإنسان ، وشبَّه أولئك الذين واتتهم هذه السانحة الثمينة ، وهي من خير أيام العمر . وساعاتُه من خير ساعات المؤمن ، ثم هم مع ذلك قد أضاعوها و فرَّطوا فيها ، و لم يغتنموها ، شبَّه كل ذلك من خلال صورةٍ أدبية جميلة رائعة ؛ شبه أولئك المفرطين براكب القطار في بلدٍ سياحيٍّ رائع جميل ،و القطار يمرُّ بمناظر الشلالات الرائعة ، ثم يعبر من فوق البحيرة على جسرٍ وقناطر تأخذ بالألباب ، ثم يرتفع هذا القطار فوق هضبة مشرفةٍ على المدينة الساحرة ... ، ثم إذا به يوازي شاطيء البحر الجميل ، فتنفذ نسمات البحر الرقيقة النديَّة ، ورائحته المتميزة الفاغمة و عبقه الشذي ، فتفغَم الأنوف و تُضَمِّخُ الأرجاء ...

كلُّ هذه المناظر الرائعة ، التي طاف عليها القطار و اجتازها . فإذا بهذا الراكب المسكين ، الذي بجوار النافذة نائم ، قد حُرِم من أجمل اللحظات ، وأروع المناظرِ واللقطات وأرقِّ النسمات ، وأعذب الأوقات .

وهذا هو حال بعض الناس في رمضان ، وفي ساعة السحر المباركةِ بخاصة ..

فإنه يُفرِّط في هذه الساعة الميمونة الطيبة ، التي تتفتَّح فيها أبواب السماء ، و ينزل ربنا سبحانه و تعالى إلى السماء الدنيا ، يَعرِض علينا عَفْوَه ومغفرته ، ويبذل لنا رضوانه ، و بعض الناس غافلون أو نائمون ، أو لاهُونَ عن هذه الفرصة السانحة ، وزاهدون في خيرها ...

و هكذا يمضي رمضان بالحبِّ و المودة والطاعة ، و حلاوة العبادة ، حاملا معه أجمل الذكريات لدى الجميع ؛ بروحانياته و عباداته و ذكرياته ، و أكلاته الشهية وأيامه المباركة ، و لياليه المنيرة ، ...

تقبَّل الله من المسلمين جميعاً صلاتهم وصيامهم وطاعتهم ‘ وعملهم الصالح ‘ وأعاده الله على المسلمين بالخير والعزة و التمكين ‘ أعواماً عديدة ‘ و أزمنةً مديدة .

و صلَّى الله وسلَّم على سيدنا محمد و على آله و صحبه و سلم ‘ و آخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين .

وكلَّ عامٍ وأنتم بخير

محمد علي كاتبي